اقرأ

عروسة على الرف



صوفي عبد الله

دار المعارف بمصر

عروسة على الرّف

صوفى عبدالله

عروسة على الرّف

اقرأ ٢٨٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٤ – أغسطس سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

عروسة على الرف

ارتفع الهتاف وامتلأ الشارع الكبير برجال يحملون الأعلام والطبول والدفوف ينشدون الأغانى والأهازيج على نغمات الطبل والدف . . . ومن حولهم تجمع الأولاد والبنات الصغار يصيحون ويهللون . . وتعالت الزغاريد من النوافذ ، وخرجت النسوة على عتبات دورهن يمتعن العيون بالموكب الضخم وهو يقطع الميدان فى طريقه إلى الساحة . إنها الليلة الكبيرة ، ليلة المولد .

وجرت الطفلة هانم تتسلق إفريز الحجرة الصغيرة المعتمة وتتعلق بقضبان النافذة الوحيدة فى الحجرة ، وتتطلع بعينين مبهورتين إلى آلاف الأرجل تمر بها فتثير غباراً يملأ الجو ويدخل فى عينيها ، فتدمع وتعطس ولكنه لا يثنيها عن التحديق إلى أيدى الصغار الذين يمرون بها . البنات يحتضن العرائس الزاهية . والصبية يتأبطون الأحصنة المزركشة والفرحة تملأ وجوههم وعيونهم وهم يجرون خلف الموكب فى ثياب جديدة متعددة الألوان .

ولم تتحرك هانم من مكانها ، ولم تمسح الدموع التى ترقرقت فى عينيها من أثر الغبار ، وظلت يداها الصغيرتان تقبضان بتوتر على القضبان وعيناها تتابعان الموكب وصدرها يعلو ويهبط . وجسمها يرتجف من أثر الانفعال . .

وبكى مصطفى ، ودخلت حسنية تتأبط عروسة المولد وتصرخ بصوتها « المسرسع » الصغير تنادى هانم ، وهانم لا ترد ، كانت هناك فى آخر الشارع أمام دكان عم متبولى بأرففه « المرصوصة » بالعرائس والأحصنة تتفقدها واحدة واحدة بذهنها عن بعد ، وتتمنى لو كانت لها هذه العروس الكبيرة ذات الثوب الأحمر والتاج المزركش بالأخضر والأصفر الذى يشبه

المروحة . . المروحة التى رأتها فى يد الست الكبيرة حينما أخذتها أمها عندها يوماً ، وضمتها السيدة إلى حضنها . وأعطتها عشرة قروش ، وتركتها تمسك المروحة الزاهية الألوان ، وألبستها فستاناً جديداً .

وصرخت حسنية :

ـ بنت يا هانم ، أين أنت ؟ ألا تسمعين صوت مصطفى وهو يبكى ؟
وقفزت هانم من فوق الإفريز ، ونزلت تجرى حيث يرقد مصطفى على الأرض . ولكنها اصطدمت بحسنية ، وخطفت عينها العروسة فى يدها ، فوقفت مبهورة « تبحلق » فيها دون أن تتكلم . . .

وابتسمت حسنية فى زهو . وهى تنقل بصرها بين هانم والعروسة ، وتتأرجح فى وقفتها يميناً ويساراً كأنها تهدهدها ، ثم قالت لهانم :

ـ أين عروستك ؟

ومدت هانم يدها الصغيرة تتحسس التاج الذى يطوق رأس العروسة ، وانزلقت أناملها إلى وجه العروسة وملابسها تتحسسها برفق . وسرت رعدة فى جسمها ، وارتفع صوت حسنية « المسرسع » .

ـ ألم يحضر لك والدك عروسة ؟

وأجابت هانم كالحالمة :

ـ ماما ستحضر لى عروسة معها ، وستحضر أيضاً حصاناً لمصطفى .

وارتفع صوت مصطفى بالبكاء ، فجرت إليه هانم ، وأخذت تبحث عن الحلمة البلاستك لتضعها فى فمه ، ولكنه لم يسكت ، ظل يصرخ ، فتربعت على الأرض وأخذته فى حجرها وجعلت تهدهده . . وجلست حسنية أمامها ووضعت عروستها فى حجرها ، وسألتها :

ـ لماذا لم يحضر لك والدك عروسة ؟ بابا أخذنى معه فى الصباح وأحضر لى هذه العروسة .

وأجابتها هانم دون أن تحول نظرها عن العروسة :

— بابا لن يحضر ، تشاجرت معه ماما أمس وتركنا ومضى ، سمعته يقول إنه تزوج ولن يأتى ليرانا أبداً . . . وماما قالت لى أنها ستحضر لى عروسة إذا لم أترك مصطفى يبكى .

— ومتى ستأتى والدتك؟

— ستأتى الآن . .

وأشارت بيدها الصغيرة إلى رف فى ركن الحجرة عليه مصباح . ويدها الأخرى تهدهد بها مصطفى وقالت :

— سأضع عروستى هناك على هذا الرف ، وماما ستعلق المصباح فى مسمار حتى لا يكسره مصطفى ، وعروستى هناك سيراها كل من يدخل الحجرة ، أما حصان مصطفى فسأضعه فوق الدولاب . .

كانت حسنية تتابعها بعينيها وعروستها فى حضنها ، ونظرت هانم إلى الدولاب الخشبى الصغير المركون على الحائط .

كلا لن تضع الحصان فوق هذا الدولاب القديم ، لقد كسرت رجله منذ أيام وسقط كل ما فوقه ، وأمها استمرت فترة طويلة فى إصلاحه ، ونقلته من موضعه فى الوسط إلى الركن ، وأسندت رجله بقطع خشبية وحذرتها من الاقتراب منه لئلا يقع فوقها وتموت . . . وأكدت عليها أن لا تجعل مصطفى يقترب منه وهو يحبو على الأرض ، وإلا وقع عليه وهشمه . . . كيف إذن تضع فوقه الحصان ؟ سيقع الدولاب ويتهشم الحصان ، يجب أن تبحث عن مكان آخر للحصان .

وحولت عينيها نحو الرف : إن الرف لن يسع سوى عروستها ، فعروستها كبيرة ، وفستانها « منفوش » وزاه ، ولا يمكن أن تضع بجانبها الحصان . . وراحت تبحث بعينيها فى كل ركن فى الحجرة : أين يا هانم أين ؟ !

وصاحت حسنية :

ـــ بابا أحضر لنا حلوى أيضاً .

وأخرجت من جيب فستانها قطعة حلوى سمسمية ، كسرتها إلى قطعتين أعطت هانم قطعة وأخذت هى الأخرى، وصرخ مصطفى يريد أن ينتزع القطعة من يد هانم ، فوضعت طرفها فى فمه فقبض عليها بشفتيه وراح يمتصها فى نهم ، وهانم مشغولة عنه بالتنقيب بعينيها عن مكان يصلح لحصانه الذى ستحضره أمها معها بعد قليل .

إن مصطفى شيطان، لا يدع شيئاً فى مكانه، كل ما تقبض عليه يده يحطمه ... لن تدعه يحطم الحصان، فلن تستطيع أمها أن تشترى له حصاناً آخر . إن أمها مسكينة ، تعمل طول اليوم فى المنازل ، وفى آخر النهار تشترى بالنقود القليلة التى تكسبها ما يأكلونه . . إنها زعلانة من والدها لأنه لم يعد يعطيها نقوداً كما كان يفعل وهو معهم . . أخذته منهم المرأة الثانية . . ترى ما شكلها ؟ !

كان والدها يجلسها على ركبتيه ويهدهدها . . وكان يشترى لها الحلوى . يأخذها من يدها إلى دكان عم متبولى وتختار هى ما تريده . .

وتذكرت العروسة الكبيرة التى اشتراها لها فى العام الماضى . لم تستطع أن تحملها فحملها عنها والدها ، وحملها هى على الكتف الآخر . . . وظلت تضحك طوال الطريق وتحتضن العروسة ، ونامت وهى فى حضنها ، وفى الصباح لم تجدها بجانبها ، وجدت أمها وضعتها هناك على الرف ، ولما بكت لتعطيها إياها ، وجدتها مكسورة، وقالت لها أمها : إنها نامت عليها فكسرت رقبتها وذراعيها ، وبكت ، وولولت ، ووعدها أبوها أن يشترى لها غيرها ، ولكنه لم يشتر لها أخرى كما قال ، وكل يوم كانت تنظر إليها وتبكى دون أن تلمسها خوفاً على رأسها أن يتحطم ، ولكن أمها أقنعتها يوماً أن تأكل منها لأن النمل سيأكلها ، واضطرت أن تأكل ـــ وهى متضررة ـــ كل يوم قطعة . . لم يكن مصطفى موجوداً . . لم تكن أمها قد ولدته بعد . .

ونظرت إلى مصطفى فإذا قطعة الحلوى بين يديه يمتصها بلهفة ، فأجلسته على الأرض وقامت مع حسنية تتفقدان المكان الذى ستضع فيه عروستها الكبيرة ، وأمسكت بعروسة حسنية ووضعتها على الرف لتريها كيف يكون منظر عروستها هى :

– ولكن العروسة التى ستشتريها لى ماما أكبر من هذه .

فنظرت إليها حسنية بامتعاض وقالت : أكبر من هذه ؟ يا سلام ! هذه أكبر عروسة فى محل عم متبولى .

كلا ، إن حسنية تكذب . عم متبولى لديه عرائس أكبر كثيراً من عروستها هذه.

– سترين إذا كانت عروستى أكبر من عروستك أم لا . . .

وخطفت حسنية عروستها من فوق الرف ، وضمتها إلى صدرها وألقت نظرة ازدراء جانبية على هانم ، ثم هزت كتفيها ومشت خطوتين ووقفت والتفتت فى كبرياء من فوق كتفها وقالت : سنرى إن كانت عروستك أكبر من عروستى يا ست هانم . نادينى حينما تأتى والدتك .

وخرجت حسنية وأغلقت الباب من خلفها ، ووقفت هانم تنظر نحو الباب المغلق وهى تغمغم :

– نعم سنرى يا ست حسنية إذا كانت عروستك أكبر من عروستى .

وشهق مصطفى ، فالتفتت إليه ، فإذا وجهه كقطعة من الدم . وقد استلقى على ظهره وراح يرفس برجليه ويديه .

وذعرت هانم ، وجرت إليه وأجلسته فى حجرها وجعلت تهزه وهو يشهق شهقات متوالية ، واللعاب يتساقط من فمه .

ووضعته على الأرض ، وقامت تجرى نحو القلة ، وخضبت وجهه بالماء دون فائدة ، كان يزداد شهيقه ، وجحظت عيناه ... وصرخت وجرت نحو الباب ، وقبل أن تضع يدها عليه فتح وظهرت أمها على عتبته ، وما

إن رأتها على هذه الحالة حتى لطمت وجهها :

ــ ماذا حدث يا بنت ؟

والتفتت إلى الطفل فإذا به يرفس برجليه ، فألقت ما بيدها أرضاً ، وجرت نحو الصغير كالمجنونة تصرخ بها : ماذا فعلت به ؟

وتبعتها هانم مرتاعة : أعطيته قطعة حلوى من حسنية .

ــ يا شيطانة . ألم أقل لك لا تعطيه شيئاً !

ومدت الأم يدها إلى حلق الصغير ، وأخرجت منه قطعة حلوى كبيرة ، فاسترد الطفل أنفاسه وراح يصرخ . فأعطته جرعة ماء ، وغسلت وجهه ويديه ، وأجلسته فى حجرها وألقمته ثديها ، ثم أخذت تؤنب هانم على إهمالها ، فلو لم يرسلها الله لمات الطفل فى يدها .

ووقفت هانم مذهولة تحدق فى أمها والدموع تترقرق فى عينيها الواسعتين لا تدرى بماذا تجيبها ، وقلبها يدق : وذهنها يتصارع .

أين العروسة ؟ ألم تحضر لها أمها العروسة كما وعدتها ؟

والتفتت خلفها ، فرأت العروسة ملقاة على الأرض ورأسها منفصل عن جسدها عروسة صغيرة صغيرة جداً . . أصغر كثيراً من عروسة حسنية . ورأسها منفصل عن جسدها ! !

وركعت هانم على الأرض أمام جسد العروسة الملقى ورأسها المنفصل ، وأمسكت بالرأس لتلصقه بالجسد ، فتحطم الجسد فى يدها إلى قطع صغيرة ! . فشهقت شهقة مكتومة ، وانحدرت الدموع تجرى على خديها وتتساقط على قطع الحلوى . ومن خلفها سمعت صوت أمها :

ــ لا تبك ياهانم . سأشترى لك أخرى . .

ستشترى لها أخرى . لقد سمعت مثل هذا الكلام من قبل . . لن تشترى لها أخرى . ولن تضع عروسة على الرف . . وستشمت بها حسنية .

ووقعت يداها فى حجرها . . وانفجرت باكية .

صباحية مباركة

انزوت فى ركن من الحجرة قصى ، ويدها على خدها ، وقد جفت دموعها واستولت عليها دهشة أغرقتها فى طوفان من التفكير .

ماذا حدث ؟ هل بطل سحر التعويذة التى كانت تستخدمها كلما أرادت شيئاً ؟ كيف إذن تواجه أيامها ؟ . .

وتحسست ذراعها ومعصمها وراحة يدها ... وتملكها شعور بالزهو ، وسرحت بخاطرها تستعرض أيام العز التى مرت بها مرور البرق .. وفجأة اقشعر بدنها وتداخلت فى نفسها وصوت بعيد يصك سمعها ، صوت أجش صاخب يأمرها :

— ستك يا بنت . بنت سيدك العمدة . إياك أسمع أنك أغضبتها . أذبحك ، أشرب من دمك . سامعة . .

وبكت . بكت بصوت حبيس ، وتعلقت بذيل أمها ترجوها ألا تدعها تذهب :

— فى عرضك يا امه ... أبوس يدك ... أبوس رجلك ... أشتغل هنا معك ، لا تتركينى يا امه ...

وزجر العمدة ، وانهال والدها عليها ضرباً ، على وجهها ورأسها وجسمها ... لم يدع مكاناً إلا وضربها فيه ! وبحذائه الكبير الضخم راح يرفسها فى بطنها ، ولم تستطع أمها أن تقترب منها ...

وألبسوها ملابس جديدة صنعتها لها سيدتها ابنة سيدها العمدة ، وسافرت معها إلى القاهرة ... إلى المدينة الكبيرة ... المدينة الواسعة ، وأجلسوها بجانب العربجى فى العربة الحنطور ... وأخذت تتطلع حولها بذهول . وهى ترى الترام لأول مرة ، والعربات والسيارات ... والأتوبيسات

والزيطة ... والهيصة . ودار رأسها مع عينيها إلى خلف وأمام ويمين وشمال .. وسيدتها يكاد يغشى عليها من الضحك ... ثم قضت ، يوماً ويومين تعامل برفق ، وكلما حضر زائرون لسيدتها نادت عليها :

– يا بنت يا خضرة . تعالى هنا كلمى سيدك الدكتور وستك حفيظة هانم .

وتحضر بين يديهم ، فيديرونها يميناً وشمالا ، كأنهم يرون عجباً! ... ثم يتكلم كل منهم كلاماً لا تفهمه ، ولا تدرى مغزاه ، فحيناً يقولون إنها الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ، وحيناً آخر يسمونها المسخ ويجعلونها تمشى أمامهم ثم يضحكون ضحكات عالية صاخبة ! ... ثم يناديها أحدهم قائلا :

– حياة أسيادك يا خضرة ! ...

لقد رأت القرداتى وهى ذاهبة إلى السوق ، وسمعته يقول للقرد حياة أسيادك . ورأت القرد يمشى على رجليه الخلفيتين ويرفع الأماميتين ، فهل هى كهذا القرد حقاً ؟! صحيح أنهم كانوا يعيرونها فى البلد دائماً بشكلها القبيح ويدللون أختها الحلوة البيضاء كلهطة القشدة ... أما هى فغالباً ما كانت أمها تكلفها بالأعمال الشاقة ، وأخوها يركلها ، ولا تجد من يحنو عليها ...

وتنظر خلسة إلى المرآة وهى تنظف حجرة نوم سيدتها ، فترى وجهها لا يختلف عن وجوه الآخرين . صحيح أنها سمراء اللون جداً ، محروقة ... وفمها واسع وشفتاها غليظتان . وبرغم أن عينيها منتفختان فإنهما واسعتان ، وشعرها ناعم ليس كشعر سيدتها الخشن ... لم تكن تعلم أن شعر سيدتها فظيع إلى هذه الدرجة ، إلا حينما غسلته وخرجت به من الحمام منفوشاً قصيراً ولكنها لم تلبث أن عادت به من الخارج جميلا ناعماً أملس . أما هى فحينما تغسل شعرها يبدو ناعماً طويلا غزيراً ...

ـ يعطى الحلق للى بلا ودان ! .

هكذا كانت تقول لها سيدتها وهى تشدها من شعرها . وأخذتها عند الحلاق الذى قصه لها عن آخره . لكم بكت وهى تعصب لها رأسها بمنديل ولكن سيدتها لطمتها قائلة :

ـ شعرك قذر ، وأنت تحملين سيدك الصغير ! .

وتململت فى جلستها تتحسس يدها مرة ثانية ، وتذكرت ابن سيدتها نادر ، وهو يكبرها قليلا ، تذكرته حينما كان يلوى ذراعها خلفها ويضربها على ظهرها ضرباً مبرحاً ويأمرها أن تمشى على رجل واحدة ! ... ثم على يديها ! ويوم أخذوها إلى حديقة الحيوان قال لها أمام قفص القرود :

ـ سوف نتركك هنا ... سيضعونك فى قفص بجانب هذه القردة .

ونظرت إلى القردة الكبيرة الهائلة برعب ، وبكت ، وتوسلت لسيدها نادر أن لا يدعها بجانبها فهى مخيفة شنيعة المنظر ، فلكزها فى رأسها وهو يضحك ، ودفعها ناحية القفص وهو يقول :

ـ أبشعة هى ؟ انظرى كيف تخاف منك ! احمدى ربك إذا رضيت هى أن تعيش بجانبك ولم تحتج وتطلب تغيير وضعها ! ...

وقضت عاماً فى عذاب أليم ، مهما فعلت لترضيهم لا تجد سوى الشخط والضرب والإهانة ! ... وأثناء الليل كانت تفكر لماذا يعاملون الأسطى على الطباخ بطريقة غير التى يعاملونها بها ؟ أليس هو مثلها ؟.. إنه يؤدى ما تؤديه من أعمال : يكنس ويمسح ، ويغسل الأطباق ويعد المائدة ! ولكنهم يعاملونه باحترام ، لا يشتمونه ولا يضربونه مثلها ! ألأنه رجل وهى فتاة ؟! ربما ... إنها ليست طفلة فهى كسيدتها الصغيرة نادية وقد سمعت أبوها يقول عنها إنها عروس فى الخامسة عشرة ! ..

وانفرجت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة باهتة ، وربتت على معصمها.

كان ذلك اليوم يوم تحول فى حياتها تماماً .. يوم تركتها سيدتها مع

أم سيد الغسالة الجديدة لتنظيف البيت ، لأن الأسطى عبده الطباخ سافر إلى بلدته فى أجازة قصيرة . ووجدت نفسها — لأول مرة فى حياتها — تأمر أم سيد أن تنظف الغسيل ، وتدعك الجوارب جيداً . . وياقات القمصان ... ثم طلعت معها لتنشر الغسيل على السطح ، وتركت باب الشقة مواربأ . ولكن الهواء اللعين ، لا تدرى لحسن حظها أو لسوء بختها خبط الباب وأغلقه ...

وارتعدت . وراحت تلطم خديها . ماذا تفعل ؟ .. ستأتى سيدتها وسيدها ويضربانها حتى يكسرا عظامها ... سيطرد سيدها العمدة والدها من خدمته ...

وهدأت أم سيد من روعها وقالت لها لا تخافى سأقول إننى أنا التى تسببت فيما حدث . ولكنها ظلت تبكى وتولول ... لأن أم سيد لا تعرف سيدتها فستكسر عنقها ، ستذبحها ، ستحرق أصابعها بالنار .

ونزلتا الى الجيران تسألانهم عن مفتاح لفتح الشقة ، ولكنهم اعتذروا ! ! وصعدت خضرة إلى السطح وأخذت تقيس بنظرها ارتفاع الحائط إذا قفزت منه إلى الشرفة . وضربتها أم سيد ودفعتها أمامها قائلة : إياك ، سيدق عنقك ، ستموتين ، هل جننت ؟ !

وانفلتت من بين يدى أم سيد ، وجرت إلى الناحية الأخرى . وقبل أن تلحق بها قفزت من فوق السور إلى الشرفة ! وصرخت أم سيد ، وأطلت عليها وهى تلطم خديها ، ولكنها نظرت إليها وابتسمت ، فلم تكن تشعر بشىء . وقامت وفتحت لها الباب ، فدخلت وهى تنظر إليها مبهوتة وتتحسسها ... وفجأة شعرت بآلام حادة فى يدها اليمنى ورجلها اليمنى أيضاً ولم تستطع رفعهما كأنهما كيسان من الرمل ! وارتمت على الأرض وراحت تصرخ وتشد شعرها ...

وفى هذه الأثناء حضرت سيدتها ، واندفعت أم سيد تحكى لها كل

ما حدث بالتفصيل ... يا للعجب ! لقد رأت وجه سيدتها يصفر كلون الليمون ، وبدلا من أن تضربها حملتها مع أم سيد إلى الأريكة التى لم تكن تجسر على الجلوس عليها ، وأرقدتاها فوقها . وطلبت من أم سيد أن تحضر لها زيتاً ساخناً وظلت تدلك لها معصمها ورجلها وهى تصرخ ، ثم لفتهما بقطعة من الصوف وسقتها زجاجة كوكاكولا ! وغطتها وتركتها لتنام ! . .

وحضر سيدها الكبير ، وسيدها نادر ، ورأت الكل فى خدمتها ! ...

استريحى يا خضرة : لا تقومى من الفراش يا خضرة ! حاولى أن تحركى يدك يا خضرة ! ... اقبضى أصابعك ، افتحيهما ... كلى ياخضرة ! اشربى يا خضرة ! .. سيدتها تحضر لها الطعام بنفسها وترجوها أن تأكل ! والأسطى عبده يخدمها ! .. وسيدها نادر يعطيها مجلة لتتسلى بالنظر إلى الصور ! ..

وتحسنت حالتها جداً بعد يومين بفضل العناية التى أحاطها بها الجميع ، ولكنها لم تحاول أن تمشى ، ولا حاولت أن تحرك يدها ، بل ظلت تصرخ كلما لمسها أحدهم ! .. ولماذا تفعل ؟ إنها كذلك سعيدة منعمة فلم تجد فى حياتها كلها مثل هذه الرعاية والحنان ! ولم تعد تسهر على راحة سيدها الصغير ، كما منعوه من الاقتراب منها . . .

ومر أسبوع . ورأت فى عيونهم القلق ، وسمعتهم يتناقشون فيما بينهم عن حالتها . وتخوفهم أن يكون حدث بها كسر ، وإلا فكيف بعد كل هذه العناية ولبخ العدس بالبيض ، وبذر الكتان ، ولا تستطيع مجرد وضع رجلها على الأرض ؟! ...

وفى اليوم الثامن ، حضر الطبيب ، وكشف عليها ، وحرك رجلها ومعصمها وأمرها أن تقف . فوقفت ومشت خوفاً منه ، وأمرها أن تمسك الكوب بيدها فأمسكتها وهى ترتعد وقال لهم : ليس بها شىء ..

وبدأت سيدتها تكلفها بأعمال خفيفة ، وكانت تعرج برجلها وترخى يدها فتربت عليها وتقول لها : استريحى أنت يا خضرة ، لا تتعبى يدك ! .

واستمرأت الراحة ، وكانت تتحرك ببطء . وتئن كلما أرادت أن تهرب من عمل يكلفونها به ... وأصبحت ليدها المرتخية إلى جانبها سحر التعويذة الذى لا يقاوم ! ولكنها لم تهنأ طويلا بحياتها الرضية .

وذات يوم فوجئت بدخول سيدها العمدة بهيبته وهيلمانه ، وفى ركابه الولد سيد السايس العبيط ، وأم سيد بيديها الطويلتين المعروقتين وهى تقفز كالحدأة ... ونودى عليها فجاءت ترتجف بين يدى العمدة ، فربت عليها وسألها عن حالها . وقامت أم سيد وأمسكت بذراعها تفركه بين يديها ... ثم جذبت رجلها بعنف ، ورغم الألم الذى استشعرته لم تستطع أن تنبس بكلمة ، وصاحت فيها وهى تضربها على ظهرها :

— قومى يا بنت قومى . بنا على البلد ... أنت مثل الحصان ما بك شيء . . .

وبين يوم وليلة أعدوا لها ثيابها القديمة والجديدة ، وأعطاها سيدها خمسة وعشرين قرشاً ، وكذلك سيدتها ، وفى صباح اليوم الثانى شدوا الرحال إلى القرية ، وذهبوا من المحطة فوراً إلى بيت العمدة حيث كان فى انتظارهم المأذون ، ومعه أبوها وأمها . وكتبوا كتابها على الولد سيد السايس العبيط ، وتكفل العمدة بتوزيع الشربات وإقامة وليمة من الفت واللحم لأهل القرية ، وبعد الأكل اصطحبتها أم سيد هى وابنها وما تبقى من الفت واللحم إلى الحجرة التى يقطنانها ! ...

وفى الصباح ، أحست بلكزة فى جنبها ، ففتحت عينيها مذعورة فإذا أم سيد واقفة فوق رأسها ، ويداها المعروقتان فى وسطها تصيح بها :

— قومى يا بت فزى ، حننامى للضحى وإلا إيه ! ناموسيتك كحلى ! .

واستوت جالسة ، تفتش عن سيد بجانبها ، فإذا به فى ركن بعيد

يتناول إفطاره وينظر إليها ببلاهة دون أن يقول شيئاً ! فأسعفها عقلها أن تلجأ إلى التعويذة ، فتحسست ذراعها وأرختها بجانبها وراحت تئن كما كانت تفعل عند سيدتها بنت سيدها العمدة . وانتظرت من حولها الاهتمام واللهفة اللذين تعودتهما كلما قالت آه يا ذراعى ! . ولكنها لم تكد تتم حركتها حتى شعرت بيد حماتها المعروقة تجذبها من ذراعها المرتخية جذبة كادت تخلعه من جسمها وانهالت بقبضة يدها الأخرى لكماً على ظهرها ، وقذفت بها إلى الركن الآخر من الحجرة وهى تقول وعيناها تقدحان شرراً :

— لا تظنى أنك تستطيعين اللعب على مثل بنت العمدة ! .. قومى اكنسى الحجرة واغسلى الملابس . لقد انتهى عهد الدلع ! ...

ووضعت أمامها كسرة خبز وقطعة من الجبن القريش ، وجلست هى بجانب ابنها تأكل من الخيرات التى جلبتها معها من بيت العمدة لإفطار العروسين .

وأسندت رأسها على راحة يدها السليمة ، وراحت ترقب زوجها الأبله بطرف عينها . ثم نظرت إلى ذراعها نظرة غيظ وحسرة وعتاب ، وتصعبت أسفاً على التعويذة التى بطل سحرها . ومسحت بظهر يدها دمعة ساخنة طفرت من عينها . ومدت على مضض يداً متلكئة إلى قطعة الجبن القريش التى تحاكى الجير لوناً وملمساً .

وعندئذ صفعت سمعها زغرودة أطلقتها الجارة العجوز العوراء أم إسمعيل . فرفعت عينها لترى وجهها يسد الطاقة الوحيدة المطلة على الطريق بحيث حجبت ضوء الصباح ، وما إن التقت نظراتها الشاردة بعين أم إسمعيل الواحدة حتى هتفت بها قبل أن تستعد لإطلاق زغرودة أخرى :

— صباحية مباركة يا عروسة .

الليلة عيد

وقفت من بعيد تنظر إلى شباك الضريح والدموع تتساقط على وجنتيها . وقد قبضت بيدها الصغيرة على شمعتين كبيرتين ، وفمها لا يكف عن التمتمة بأدعية أغلب الظن أنها سمعتها عن والدتها أو جدتها دون أن تدرى معناها ... إنها عاجزة عن اختراق جماهير الناس التى يزدحم بهم الطريق وصحن الضريح ... فالليلة ليلة المولد الكبير ، مولد السيدة زينب . وقد قيل لها إن السيدة تستجيب لكل دعاء من الأعماق فى ليلتها هذه المباركة.

وراحت « زينب » الصغيرة — التى لم تتجاوز السابعة من عمرها — تبكى بحرقة ، وعيناها تخترقان الجموع فى نظرة يائسة :

كيف يمكن أن تصل إلى الضريح ؟! لابد أن توقد هاتين الشمعتين الليلة بأى شكل ... لابد أن تقدمهما لأم هاشم . .

وإذ هى فى حيرتها الباكية ، تقدم منها شيخ معمم ، ذو لحية بيضاء طويلة ، تبدو عليه المهابة وسألها فى رفق :

— لماذا تبكين يا صغيرتى ؟

ووقفت حائرة وقد تولاها الخوف ، وبكفها الصغيرة أخذت تمسح دموعها ، وتجفف عينيها ، فخيل إليه أنها فقدت والدتها وسط الزحام فاقترب منها وربت على كتفها فى حنان وأدناها منه قائلا :

— قولى لى ماذا حدث ؟

ورفعت إليه عينين مخضلتين بالدموع ، ثم تهلل وجهها الطفلى ، لقد سمعت من جدتها أن بجانب الضريح شيوخاً يستطيعون أن يقوموا بكرامات كثيرة ، وهذا الشيخ الجليل ، تبدو عليه الطيبة ، ولربما استطاع أن يعيده إليها . . ووقفت تنظر إليه فى ضراعة ، ثم قالت على استحياء :

— لقد ذهب . . لن يعود مرة ثانية ... هل تستطع أن تعيده إلى ؟
وبهت الشيخ لكلماتها ، ولم يلبث أن جلس القرفصاء وأخذها بين ذراعيه ، وسألها وهو يربت عليها :
— من هو الذى تريدين أن أعيده إليك ؟
فأسرعت تمسح دموعها والطمأنينة تزحف إلى نفسها ، وارتكزت بيدها الصغيرة على كتفه وهى تحدق فى عينيه بعينيها البريئتين ، وقالت :
— أبى .
— أبوك ؟ وأين ذهب أبوك ؟
وهزت كتفيها ببراءة الأطفال وقالت بيأس :
— لا أدرى .
— كيف أعيده إليك إذن وأنت لا تعرفين مكانه ؟
وعاودها اليأس ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وحاولت التخلص من بين ذراعيه وقد تملكها غضب شديد :
— كنت أعلم أن أحداً لن يستطيع إرجاعه إلى .
وتشبث بها الشيخ وصاح فى لهجة ودود :
— ومتى ذهب ؟
— منذ زمن طويل .
— ومن قال لك إنه لن يعود ؟
— سلمى . صديقتى .
— وهل تعرفه سلمى .
— كلا .
— إذن كيف عرفت أنه لن يعود ؟
— سلمى تعيش مع والدتها عند جدها . وأنا أعيش مع أمى عند جدتى مثلها تماماً .

ـــ وأين ذهب والد سلمى ؟

ـــ لا أدرى . ولاهى أيضاً تدرى . ولكنه أحضرها عند جدها وذهب ، وأمها سوف تذهب مع رجل آخر وتتركها عند جدها .

ـــ وهل أملك ستذهب أيضاً مع رجل آخر وتتركك عند جدتك ؟

ـــ لا أدرى . . .

ـــ إذن لماذا تعتقدين أن والدك لن يعود مثل والد سلمى ؟

ـــ سلمى قالت لى إنه ما دام قد تركنا نعيش مع جدتى فلن يعود بعد ذلك أبداً مثلما فعل والدها . .

ـــ وهل أبوك غاضب من أملك ؟

وسكتت قليلا كأنما تسترجع الماضى ، ثم سرحت بعينيها الصافيتين وقالت :

ـــ رأيتهما مرة يتشاجران .

ـــ متى كان ذلك ؟

ـــ قبل أن يتركنا ويرحل .

ـــ وماذا قال لك عند ما تركك ؟

ـــ قبلنى كثيراً ، وضمنى إلى صدره . وقال لى لا أدرى كيف سأعيش بدونك يا حبيبتى ...

وغلبها البكاء ، وعادت تستعطف الشيخ من بين دموعها :

ـــ ألا تستطيع أنت أن تعيده إلى ؟ أرجوك ؟

ـــ ألم يرسل لك خطابات ؟

ـــ كلا . وكنت أعتقد أنه سيحضر الليلة كما قالت لى والدتى ، فالليلة عيد عند الناس كلها ... ولكن لم يحضر .

ـــ وماذا جاء بك إلى هنا ؟

ـــ لقد أرسلتنى أمى لأشترى حلاوة طحينية لعشائى .

ونظر إلى الشمعتين فى يدها وسألها :

– ومن أين لك هاتان الشمعتان ؟

– لم أشتر الحلاوة ، واشتريت بدلا منها شمعتين لأضعهما على ضريح السيدة جلتى قالت إن أم هاشم تستجيب الدعاء ، أحقاً تستطيع أن تعيد إلى والدى ؟

وأسقط فى يد الشيخ إذا قال لها نعم تستطيع فهو لا يدرى بالضبط سر اختفاء والدها ، ربما مات ويخفون عنها الخبر ، أو طلق والدتها ... وعاد يسألها :

– ما الذى جعلك تعتقدين أن والدك لن يعود ؟ هل قالت لك ماما ذلك ؟

– ماما لم تقل لى شيئاً .

– لماذا لا تسأليها ؟

– لأنها تكذب على . كلما سألتها قالت سوف يحضر قريباً ، ولكنه لم يحضر. وأمس سألتها : هل سيحضر بابا على المولد ؟ فقالت نعم ... ولكنه لم يحضر .

– من أدراك ؟ ربما تجدينه الآن فى البيت إذا عدت .

– لن أجده ... إنه لن يعود . سلمى قالت لى ذلك . .

– لا تصدقى سلمى . إنها كاذبة . سأعود معك إلى البيت لأعرف الحقيقة من ماما .

– لن تقول لك الحقيقة . إنها دائماً تخفيها ... تخفيها عن كل الناس.

– كلا. لن تخفيها عنى . هيا معى وسأحاول أن أجعل ماما تعود إلى بابا .

وأجابته بحزن :

– لن تستطيع . سلمى قالت لى إن الشيخ حاول أن يصلح بين

والديها ، ولكن أمها رفضت أن تعود ، ومنذ ذلك اليوم لم تر والدها أبداً ...

وقام الشيخ وأمسك بيد زينب وقال وهو يسير إلى جوارها :

ـ تعالى . سأحاول . ربما هداها الله .

وجذبته من يده إلى الضريح وقالت متوسلة :

ـ خذنى أولا إلى هناك لنضع الشمعتين . لتعيد هى إلى بابا .

* * *

وذهلت الأم الشابة وهى ترى الشيخ داخلا عليها ، وفى يده ابنتها ؛ واعتقدت أنها ضلت الطريق ، أو أن النقود وقعت منها ، أو ضلت فى زحام المولد . وقد بدأ القلق يراودها ، ولكنها لم تلبث أن رحبت بالشيخ وأدخلته إلى القاعة . وحضرت الجدة متسائلة :

ـ أين كنت يا زينب ؟ ماذا حدث ؟

ولم تجبها زينب ، بل لاذت بكتف الشيخ الذى جلس لا يدرى كيف يبدأ حديثه ، وعجبت الأم الشابة وسألتها :

ـ هل أضعت النقود يا زينب ، أم ضللت الطريق فى الزحام ؟

وأجابها الشيخ :

ـ كلا . لم تضيع النقود ، ولم تضل فى الزحام ، بل اشترت شمعتين أوقدتهما على ضريح السيدة .

وبهتت الأم وصاحت :

ـ شمعتان ؟! فيم إذن كان بكاؤك لشراء حلاوة طحينية لعشائك ! ذنبك على جنبك ، ستنامين دون عشاء .

وتنحنح الشيخ متسائلا :

ـ وأين السيد والدها ؟

ونظرت إليه الأم الشابة بدهشة ، ثم قالت :

ـ ليس هنا !

وتجرأ الشيخ وسألها :

ـ أين هو إذن ؟

ـ فى عمله .

ـ أين ؟

ولما لم تجب قال :

ـ وجدت ابنتك بجانب الضريح تبكى بحرقة كى تعيد أم هاشم إليها والدها الذى أخفيتم عنها مكانه ! ..

ومصمصت الجدة شفتيها ، وجذبت الأم ابنتها إلى صدرها وقالت وهى تقبلها :

ـ ألم أقل لك إنه سيعود قريباً . . .

وأزاحت زينب ذراعى أمها وعادت تلوذ بكنف الشيخ صارخة :

ـ كلا ، إنها دائماً تقول ذلك . وأبى لن يعود .

وقالت الأم مستدركة :

ـ إنه يعمل فى السد العالى منذ عام . وسيعود قريباً فى إجازة . وربما عاد الليلة . ولكنها لا تريد أن تفهم . ولا تريد أن تصدق . ولا أدرى من الذى أدخل فى روعها هذا الإحساس الغريب ، فهى لا تكف عن البكاء .

وصرخت زينب :

ـ ألم أقل لك ...

وسألها الشيخ :

ـ ألا يرسل لك خطابات ؟ ألا يرسل لها صوراً ؟ أريها لها حتى تصدق .

وبلعت الأم ريقها وسكتت . وطال الصمت لحظة لم يكن يسمع فيها إلا لغط سهرة المولد فى الليلة الكبيرة آتياً من بعيد . وانبرت الجدة تقول :

ـ منذ سافر لا تصلنا منه إلا حوالة بريد فى أول كل شهر ، ولا كلمة ، ولا حرف .

ورفع الشيخ حاجبيه الأشيبين قليلا وهو يربت بأصبعه تحت ذقن الطفلة التى لم تزل يدها على ركبته وهى تنقل عينيها بين وجوه المتحدثين .

ـ ألعله غاضب ؟

وأجابت الجدة :

ـ نعم غاضب ... رفضت الذهاب معه .. وكم ألح عليها ، ونحن أيضاً كم ألححنا عليها . . . ولكنها أصرت أن تمكث هنا معنا حتى يعود . والرجل . يا ولداه . كادت عينه تخرج من وجهه لهفة على ابنته . والبنت هى الأخرى لم تفارق حضنه منذ وعت ليلة واحدة ، لا تنام إلا على ذراعه.. لم تجف لها دمعة منذ فارقها ...

وأومأت الأم بيدها فى ضيق ، فالتفتت الجدة إليها صائحة :

ـ أيعجبك منظر ابنتك ؟ ألن ترجعى عن صلابة رأسك حتى تصاب الطفلة بمكروه ؟ ألا ترين كيف أصبحت ؟

وقطب الشيخ قائلا :

ـ لقد قصت على قصة غريبة عن فتاة تدعى سلمى تؤكد لها أن أباها لن يعود وأنك ستتزوجين من رجل آخر وتتركينها عند جدتها كما فعلت أم سلمى . وأن كل ما يقال لها عن عودة والدها كذب فى كذب . . لهذا فزعت إلى أم هاشم تسألها النجدة وشهقاتها تكاد تخنقها .

ودقت الجدة على صدرها وقالت لابنتها :

ـ أرأيت ؟ أيعجبك هذا الحديث ؟ خذى ابنتك وقومى إلى زوجك وحيثما يكن فامكثى معه . . هداك الله . . .

وسكت الشيخ قليلا وهو يرقب التردد على وجه الأم الشابة ، ثم قال بصوت خافض ولكنه يفيض بالعتب :

ـ أتريدين أن تخسرى ابنتك بعد أن أصررت على خسران أبيها ؟ أهذا ما تريدين حقاً ؟

. . . .

وعندما خرج الشيخ تلك الليلة وفى يده عنوان والد زينب فى السد العالى ليرسل إليه برقية كى ينتظر أسرته الصغيرة فى الغد . قامت الأم تجمع ملابسها وملابس ابنتها . . وقدمت الجدة لزينب قطعة من البطاطة قائلة :

ـ كلى هذه يا زينب .

وأمسكت زينب بقطعة البطاطة ، وتكومت على الأريكة والنوم يداعب جفونها وقالت :

ـ سآكل نصفها ، والنصف الآخر سأحتفظ به لبابا ...

وقضمت قضمة واحدة ، وقبل أن تبتلعها دهمها النوم ، وعلى وجهها ابتسامة رضا . . .

وساد الصمت بين المرأتين وهما تجمعان الثياب من هنا وهناك . . وأصوات سهرة المولد فى الليلة الكبيرة تترامى إليهما من المدينة الساهرة عن بعد .

من أجل أمى

كل شىء فيه يذكرك بشجرة الدوم ذات الثمار الخشبية الصلبة التى تنبت فى الصعيد الأعلى وسط القفار المهملة ، ويجد الغلمان والبنات هناك لذة غير مفهومة لنا فى نحتها بأسنانهم البيضاء ، نحتاً فيه مشقة ، ليحصلوا على حلاوة يسيرة فى أفواههم . . ولكن حلاوة التحدى والانتصار تزيد من عذوبتها كثيراً ، وعيونهم العسلية القاتمة تتوهج من أثر المجهود . رأسه نفسه ثمرة دوم كبيرة ، ما أشق العثور فيها على العذوبة الكامنة تحت صلابتها وعنادها .. ولكن هذه العذوبة موجودة ، وقد تطالعك فجأة على غير انتظار ، وفمه الغليظ وأنفه المفلطح قليلا ما ينفرجان عن ابتسامة . ولكن هذه الابتسامة حين تشرق تسطع عليك كالشمس . إلا أن « عويس» الصغير لا يعرف كيف يتكلفها للمجاملة أو النفاق . . . فابن النوبة القادم منها إلى القاهرة حديثاً لم يتعلم هذا التمثيل المألوف فى حواضرنا الكبيرة . . . يقول ما فى رأسه بلا مبالاة . ولا تحوير ، ويفعل أيضاً ما يخطر بباله بلا تردد أو تفكير . إنه ابن الطبيعة العذراء الذى قضى سنوات عمره العشر ملتصقاً بأمه فى ظلال أبى سنبل ، كما يلتصق المهر الصغير بأمه ، لا يعرف من الحياة إلا إحساساتها البسيطة المباشرة ، والتعبير عنها بمثل تلك البساطة المستقيمة . ولا حرج بين المهر وأمه أن تركله أو يعضها لاهياً أو غاضباً أو متدللا . . . يمرح بين الجبل والنهر ، وشجرات النخيل المتناثرة ، وشجرات الدوم التى يغرم بثمارها غراماً لا مزيد عليه .

وفجأة وجد عويس نفسه محمولا فى قطار يطلق الدخان ويرمى بالشرر بين زحام من الناس لم يعهد له مثيلا فى حياته من قبل . حتى أبوه

الذى اصطحبه معه لم يكن يألفه كثيراً . فهذا الأب بواب فى القاهرة لبث لا يزور مسقط رأسه فى النوبة سبع سنين نسى فيها الصغير شكله ، وتعود فيها ألا يكون معهما ــ هو وأمه ــ ثالث . . . إلا عنزتهما الصغيرة التى تحلبها أمه لتقدم له اللبن مع الشاى به ثلاث مرات أو أربعاً فى كل يوم . . . فلما انشقت الأرض عن هذا الأب فجأة ذات صباح أنكره إنكاراً شديداً ، وأنكر معه إقبال أمه على هذا « الدخيل » ، واختصاصها إياه بخير ما تطهو من الاوبيا (التى يسمونها هناك الكشرنجيج) ، وصار هذا الدخيل يحظى بأكثر اللبن لشايه ، وللشاى الذى يقدم للرجال الآخرين من الجيران الذين يزورونه للترحيب بمقدمه . . . ولم يخفف من هذه الغصص كثيراً ما قالوه له من أن هذا الرجل أبوه... فالحياة كانت جميلة جداً وسائرة على خير حال بدون هذا الأب . فما لزوم الأب وفى الأم الكفاية ؟

وذات صباح أيضاً أخذه هذا الرجل معه ، فالقرية ستهاجر إلى النوبة الجديدة ، وعويس رجل ولا بد أن يعمل كما يعمل الرجال ــ هكذا قالت له أمه وقد خانته وحالفت ضده هذا الرجل الدخيل ــ فى القاهرة . . . أم الدنيا . . .

وظل يبكى طول الرحلة ، وأبوه يسرى عنه حيناً ، ويضيق بإصراره على العويل حيناً آخر فينهره ويلكزه ، ثم يشترى له عود قصب يمصه الصغير وهو يبلله بدموعه التى تنحدر من عينيه الواسعتين كأنهما عينا إله فرعونى من أجداده الغابرين .

وبهذه « الزفة » من العويل دخل عويس بيت تلك الأسرة فى القاهرة ليبدأ حياة الرجال ، خادماً تحت التمرين .

وياله من تمرين . . . فثمرة الدوم صلبة لا تلين ، ولا بد من صبر وجهد طويلين شاقين إلى أن تجود بعذوبتها الكامنة فيها . والحق أن ثمرة

الدوم كانت فى هذه المرة شديدة العناد ، حتى خيل إلى من ينحتونها بأسنانهم أنها زلطة صاغتها الطبيعة على شكل دومة . . . وهموا بالتخلى عنها مراراً ، لولا أن والد عويس اختفى من القاهرة ليعمل فى الإسكندرية ولم يترك عنوانه . . . ومضت أربعة شهور لم يعد فيها ليرى ابنه أو يتقاضى أجره المتراكم . . . فلم تكن لهم حيلة فى استبقائه . . . وهو ينتهز كل فرصة ليتكوم فى الشرفة باكياً ينادى أمه . . . أو مقلباً ناظريه بحيرة فى نجوم الليل ، كأنه يفتش بينها عن النجوم التى كان يراها فى موطنه حين كان ينعم بجوار أمه . . .

وفجأة جادت الدومة العصية بعذوبتها . مرض ابن الأسرة الصغير ، فإذا عويس يتكوم إلى جوار فراشه لا يبارحه متسقطاً كل لفتة منه ليقضى له ما يطلبه . وجفت دموعه على فراق أمه . وانحلت عقدة لسانه ، وراح يسلى المريض ابن السنوات التسع بألعاب وأغان نوبية فى لهجته الساذجة التى تبعث الابتسام فى وجه المريض المهموم . . .

ومن هذا اليوم شعر عويس — بعد انقضاء أربعة أشهر — أنه جزء من هذا البيت ، ولم يعد يتحدث عن أمه ، وفتح حواسه لكل ما حوله فى الشارع ، وفى التليفزيون ، وفى صور المجلات يسأل عن كل شىء ، ويدركه إدراكاً بسيطاً يشيع الابتسام فى كل من حوله ، ويتركونه يتصور الأمور كما يحلو له ، أو كما يستطيع بتفكيره الساذج الذى لم تدخل الحضارة شيئاً من التعديل على فطرته الأولى . . . وبدأت تنهال عليه أمارات العطف من أفراد الأسرة والجيران ، ويجدون تسلية كبيرة فى الرد على أسئلته الكثيرة ، مستمتعين بنظرة العجب والفضول التى تطل من عينيه الكبيرتين الحالمتين ، ثم تعليقاته التى يمتزج فيها خيال الأمانى بالتصور الأسطورى.

ثم بدأ كل شىء يتخذ اتجاهاً جديداً عند ما طاف رجل ينادى بصوت منغوم : « ما يربى الملاح إلا الملاح . . . » وطار عقل عويس

عندما شاهد ما يبيعه الرجل من الكتاكيت ... فها هو ذا أخيراً شيء فى المدينة لا يختلف عما عهده فى مسقط رأسه . كل شيء هنا إذن يمكن أن يكون بخير إذا استطاع أن يربى سرباً من هذه المخلوقات الصغيرة الرقيقة التى تطلق صوصوتها بلا انقطاع .

وخلسة حمل « عويس » ما معه من نقود الهبات — وقلما كان يبقى منها للغد شيئاً ، فهو يشترى الحلوى والمياه الغازية بإسراف شديد — واشترى ستة كتاكيت وضعها فى صندوق من الورق المقوى وحملها إلى سطح البيت . . . ولم يفض بسره إلا إلى صديقه الصغير ابن الأسرة الذى صار بعد شفائه من مرضه يكتب له كل يوم خطاباً إلى « الست مدينة » أم عويس . وابن الأسرة الصغير تسلل خلسة ورأى الكتاكيت ثم نقل الخبر — خلسة أيضاً — إلى أمه . . . ولكن السيدة تجاهلت الأمر ، وتركته يتلهى بهذه الهواية الجديدة .

وبدأ عويس يقلع عن شراء المياه الغازية والحلوى . . . فلا بد من شراء قمح وبرغل للكتاكيت ، ولم يفته أن يشترى كل يوم بيضة يسلقها ويخلطها بالبرغل زيادة فى بره برعيته الصغيرة . . .

وفى نجوة من الأسماع كان عويس يحلم أحلام يقظته بصوت عال وهو يجالس صديقه الصغير . . . ولم يضحك الصديق الصغير بل اشترك معه فى الحلم الذهبى ، وصار يساعده بما يعرفه من العمليات الحسابية على تغذية أحلامه بالأرقام .

الكتاكيت ستغدو دجاجاً يبيعه عويس بمكسب كبير . فالدجاج أثمانه مرتفعة لحسن الحظ — حظ عويس طبعاً باعتباره منتجاً ! — ثم يشترى بطاً صغيراً . والبط لحسن الحظ غالى الثمن أيضاً ، ويبيعه عندما يكبر ليشترى عنزة تلد له ويبيع نتاجها ليشترى جملا .

نعم جمل ! ولم يتنازل عويس عن فكرة الجمل هذه ، وإن لم يهضمها

صديقه الحضرى ، لأن الجمل كان يحتل مكانة عالية من طفولة عويس وترتيبه لقيم الأشياء . . . ومن تربية الجمال يربح ويشترى سيارة رمسيس . فالسيارة الصغيرة كانت أهم شيء لفت نظره فى القاهرة . ولعل السر فى حجمها ، وعنده أنها أرخص سيارة يمكن شراؤها بثروته فى أقرب فرصة ممكنة .

— سيارة ؟ وماذا تصنع بها ؟ . . .

— اذهب بها إلى كوم أمبو وأحضر فيها أمى « مدينة » وأطوف بها القاهرة التى لم ترها فى حياتها .

وظل هذا الحلم يتكرر كل يوم بضع مرات مع تحوير قليل فى التفاصيل ، وإدخال تحسينات بقصد تقليل المدة . وبصعوبة شديدة اقتنع عويس أن ارتفاع أسعار اللحم من شأنه أن يجعل تربية البقر أهم وأربح من تربية الجمال . . . وعلى مضض وافق على هذا التعديل الجوهرى وأخذت « الخطة » صورتها النهائية ، وشرع صديقه يجرى الحسابات المطولة بطريقته الساذجة لمعرفة المدة اللازمة للوصول إلى السيارة « رمسيس » . . . ويبدو أن هذه « الحسبة » لم تكن شيئاً سهلا ، فقد اضطر لإعادتها أكثر من مرة ، وفى كل مرة يخرج بنتيجة مختلفة . . . وعويس جالس القرفصاء بجانبه يرقب حركاته وعبوسه ومجاهداته مع الأرقام ، تماماً مثلما كان جد من أجداده يرقب ساحر القرية وهو يتلو التعاويذ ويتصل بالجان . وفى عينى عويس الواسعتين غموض وتوسل ورهبة وأمل . . .

وضايق الفشل المتكرر المحاسب الصغير فأسقط سخطه على عويس :

— قم من جانبى ولا تحدق فى هكذا . . . حملقتك تجعل الأرقام تروغ منى . . . اذهب واصنع شيئاً مفيداً .

وباستكانة تسلل عويس ليصنع « أفيد » شىء يمكن أن يشغل به

وقته : صعد إلى السطح ليتفقد رعيته الصغيرة . . . ومعه وعاء ماء وطعام... ولكنه عادبعد دقيقتين اثنتين وعلى وجهه كل علامات الذعر . . .

— « الساب » . . . « الساب » أكلت الكتاكيت .

وبمشقة استطاع أن يفهم ما يعنى بعد أن كرر عويس كلمة « الساب » عشرين مرة وكأنه لا يجد شيئاً غيرها يقوله . ولما أعيته الحيلة جعل يعوء بفمه ، فأدرك صاحبه أنه يعنى « القطة » . . . فهم حيث ولد عويس يسمونها « الساب » .

ولم يبك عويس . تحولت الفجيعة عنده إلى نار تتبخر فى وهجها الدموع . غدا رجلا من الجنوب . الفجيعة عنده لا تعنى البكاء . بل تعنى الثأر . . .

تحول تفكيره إلى الثأر من « الساب » . . . التى رآها تجرى وفى فمها كتكوت ، وتركت الأخرى مجندلة . إنه لن ينسى شكلها الأبيض المرقط بالسواد . قطة كبيرة شريرة . هكذا ظل يكرر أوصافها وهو يتلفت كالمجنون ، واشترى « نبلة » قوية بعشرة قروش ، وأعد ذخيرة من الزلط ، ولكن القطة لم تظهر ، كأنما ألهمها شيء أن خطراً يترصدها هنا .

ولماذا هذه القطة بالذات ؟ هكذا سأل عويس نفسه ، وشرع بعدها يصب جام انتقامه على أى قطة يقع عليها بصره. وذات مرة ذهب إلى السوق ليشترى خبزاً — والأسرة تنتظره لتتغدى — فغاب ساعة كاملة وعاد ممزق الثياب ، لا لشيء إلا لأنه لمح قطة ، فوضع سلة الخبز على الأرض وجرى بالطوب وراء القطة من شارع إلى شارع ، ولما عاد وجد غلاماً « ابن حلال » يجرى بسلة الخبز فطارده وصب عليه غيظه الذى فاته أن يصبه على القطة . . . وخرج من المعركة بعين متورمة وجلباب ممزق . . . ومع هذا لم يتعلم عويس ألا يجرى وراء القطط تاركاً سلته ، فمنظر أى قطة كفيل أن ينسيه كل حذر ، حتى صارت لوثة القطط حديث الشارع

كله ، ومثار نكات لاذعة كان يقابلها بالعض على شفتيه فى صمت وإصرار . . .

وذات يوم تهلل وجه عويس كأنما كتاكيته بعثت إلى الحياة من جديد . فقد لاح له انتقامه الكامل دانى القطوف . . .

القطة إياها رآها تتسلل فى تثاقل إلى السطح . . . وبالخفة التى يتعلمها أبناء الجبل فى تعقب الحيوان بلا صوت ، تسلل هو أيضاً بعد أن خلع حذاءه وارتد إلى طباع الفطرة . ورآها تدخل . . . أين ؟ . . . فى ذلك الصندوق نفسه الذى افترست فيه كتاكيته ! .

الفاجرة ! . . لقد اتخذت من بيت ضحاياها سكناً لها . . . وكمن يتسمع . . . فانتهى إليه مواء طويل كأن بها مغصاً حادا . وبخفة الذئب تلصص من وراء كومة قش وأدرك أنها تلد . . .

المجرمة ! فى ساعة ضعفها هذه سيعرف كيف يقضى عليها . . . وتلفت حوله فى السطح ، ثم بخفة الذئب نزل إلى الطريق . . . وراح يجول وهو يتلفت بعناية كمن يبحث عن شىء معين . . . إلى أن رأى فى رحبة معدة للبناء قطعة من الدبش ثقيلة . لعلها أثقل من عويس نفسه . ولكن النار التى تستعر فى داخله زودته بقوة أجداده الذين نقلوا الصخر إلى قمة الهرم . . . وصعد سلم الخدم والحجر على كتفه بخفة وتؤدة شديدتين . . . وهو يحاذر أن يراه أحد حتى لا يسأله أو يعابثه كما يفعلون معه عادة . . .

وعلى السطح أرهف سمعه وهو يكتم أنفاسه اللاهثة فلم يسمع شيئاً . . . ودار من وراء كومة القش واسترق النظر . آه . . . إنها لم تزل هناك . . . ولمح خمس هريرات صغيرات عمياً . هكذا يكون الثأر أتم . . . لتلك الكتاكيت الستة . . . موتها وحدها لا يكفى . موتها مع ذريتها وفلذات أكبادها هو الذى يمكن أن يشفى غليله بعد أن حرقت كبده على معقد آماله فى أن يكون الفارس البطل فى حياة أمه . . .

وعاد بهدوء شديد وهو يعض على شفته السفلى فحمل الحجر ، ووازنه بين يديه جيداً فوق رأسه ، وتمكن منه بيديه ، كى تكون الضربة الواحدة قاضية ، انبطح على بطنه فوق كومة القش ليفاجئها من الخلف... ورويداً رويداً زاد اقتراباً ، فكلما قربت المسافة كانت الضربة أقتل.

وأخيراً انكشفت لعينيه الواسعتين كعينى إله مصرى قديم الصورة الكاملة . . . رأى الحريرات الصغيرات الخمس العمى كل واحدة منها التقمت ثدياً من أثداء القطة الكبيرة ، وهى راقدة مستسلمة ، والأنفاس تتردد بقوة فتعلو أضلاعها وتهبط . جو غريب غامض من الأمن يرفرف على العائلة الوادعة . . .

وحدق بعينيه الكبيرتين طويلا والحجر فوق رأسه ، وتراخت يداه شيئاً فشيئاً وهو يستغرق فى الصورة الماثلة لعينيه ، إلى أن استقر الحجر فوق القش .

وبسكينة وحذر تسلل راجعاً وقد أسدل جفنيه على عينيه ، ونزل إلى المطبخ ، وجلس على حافة النافذة ويده تحت ذقنه ، ولزم الصمت طويلا . . . وقد استغرقه شرود شديد ، ثم انثنى ففتح درج صوان المطبخ وأخرج منه نبلته وهو يعض على شفته السفلى بعزم ، وفتح الباب وتسلل منه . . . ولكنه لم يصعد إلى السطح ، بل نزل إلى الشارع وراح يبحث عن « حسن صيام » خادم البيت المجاور ، فقد ساومه يوماً ما على نبلته بخمسة قروش فأبى أن يبيعها فالرجل الحق لا يبيع سلاحه — هكذا علموه — ووجد حسن الذى استغل الموقف وأبى أن يدفع الآن أكثر من أربعة قروش ... تناولها عويس بلا مناقشة ومضى فاشترى زجاجة من اللبن .

وصعد السلالم إلى السطح ، وقد ازدادت أسنانه انغراساً فى شفته ، ولكن ضياء غريباً كان فى هذه المرة يشع من عينيه . . . ضياء بلا شرر . . .

إحداهن . . .

وقفت أمام الرسول مذهولة . فاغرة الفم . جسمها ينتفض. لا تكاد تصدق سمعها . تحاول أن تتكلم . . . تسأله . . . ولكن الكلمات كانت تقف فى حلقها . ثم تموت على شفتيها ! نسيت أنها بقميص نومها الذى يكشف عن صدرها وذراعيها . . . لم تفطن لنظرات الرجل النهمة وهى تفض الخطاب الذى قدمه لها . . . وتقرأ سطراً واحداً كتب بخط كبير واضح : سأعود اليوم . « عزت » . . .

هل حقاً سيعود ؟ غير معقول ؟ ! كيف؟ ! متى ؟ !

لكن الرسول لم يتكلم . أدى التحية العسكرية وانصرف . . .

وأغلقت الباب من خلفه ، وكأنما انطلقت شحنة انفعالها المكبوت من عقالها . . . فهى تقفز ، وتتوثب ، وتصرخ ، وتبكى ، وتضحك ، وتنادى بأعلى صوتها . . .

وخرجت حماتها من الحجرة مروعة ، فهجمت عليها تحتضنها وتقبلها ، وتدور بها فى البهو كالمجنونة . . . المسكينة تحاول أن تستوضحها الأمر دون فائدة ! . . . فراحت تبكى وتضحك معها . . . وفجأة تركتها فى ذهولها واندفعت إلى حجرتها .

هل سيعود حقاً ؟ ! . . . لا بد أن تلقاه فى أجمل صورها . . . لا بد أن تلبس الثوب الذى يحبه . . . لا بد أن تسرع قبل أن يحضر . . .

ــ ماذا قال الرسول ؟ هل قال إنه سيحضر فوراً ؟ . هل قال إنه سيحضر اليوم صباحاً ؟ مساء ؟ . . أم باكراً ؟ . . أم بعد أيام ؟ . . .

وعادت تقرأ الكتاب :

سأعود اليوم « عزت » . . .

وتبعتها حماتها تسألها فى لهفة . فوجدتها تخلع قميص نومها وتقفز من المشجب إلى الصوان ، ومن الصوان إلى السرير وهى تردد :

— سيصل اليوم ! . . . عزت ! . . . سيصل اليوم . . .

ثم نظرت إليها متوسلة :

— لا تفتحى له الباب. دعينى أكن أول من يقابله ... أرجوك . أتوسل إليك .

وتركتها حماتها وهى تخبط كفاً بكف ، وتجرجر رجليها فى إعياء شديد .

— لقد جنت المسكينة ! . . .

وأخرجت ثيابها من الصوان واحداً فى إثر الآخر ، تقذف بها فوق السرير ، وعلى الأرض ، وفى كل مكان ! . . .

— كلا . ليس هذا . . . ولا هذا . . . ولا هذا ! ! .

أحقاً سيعود ؟ ! أين كان إذن طوال هذه الشهور ؟ ! لم تسأل الرسول . . . أكان يعلم مكانه ؟ ! منذ ثلاثة أو أربعة أشهر على ما تذكر وصلتها منه آخر صورة ، كان قوياً باسماً تبدو علامات الصحة على محياه ...

وأخرجت صندوق خطاباته تقلب فيه ، ثم نحته جانباً وأسرعت تحضر حقيبة يدها .

— ها هى صورته الأخيرة . يبدو فى أوج صحته . . .

ووضعتها بجانب أول صورة أرسلها ، فبدا لها أوفر صحة وعافية . . .

— ماذا أصابه إذن ؟ لم انقطعت أخباره عنها ؟ ! لم يمرض فى حياته قط . . . على الأقل منذ أن عرفته . وأحبته . وتزوجته . . . كان فى بزته العسكرية صورة مشرقة للضابط القوى البنية ، نال أكثر من كأس فى مباريات كرة القدم . كان أحد الأبطال المعروفين . . .

واحتضنت الصورة وقبلتها . . . لم يبرح خيالها منذ أن رحل .

وارتعدت . كم كان قاسياً ذلك اليوم . . . لم تستطع أن تفهم معنى الواجب. واجب الضابط حين يدعى للميدان ... رفضت أن تصدق أنه سيتركها ، وإلى أين ؟ إلى الحرب ؟ . . . ولم يمض على زواجهما سوى شهرين . . . كان قوياً حازماً وهو يسوق إليها النبأ ، لم يهزه استعطافها أن يؤجل الذهاب لأسباب كثيرة ! . . . أصر أن يرحل . . . وأن يرحل فوراً !

وتتابعت الصور أمام عينيها ، وهى تودعه فى الخامسة صباحاً أمام البيت ، وهو يركب السيارة الجيب وبجانبه جندى . . . وهى تتوسل إليه والدموع تخنق صوتها ، أن يواليها بخطاباته . . . وهو يشد على يدها مشجعاً ويقبل يد والده الواقف بجوارها ويشد على يد أخيه . . . وهو يركب السيارة وينطلق كالسهم فى غبشة الصباح . . . ويخلفها وراءه لا تكاد تصدق نظرها . . . وحموها يصحبها معه إلى بيته لتعيش معهم لحين عودته ظافراً . . . وهى تمشى بجانبه لا تحس بأقدامها على الأرض ! . . . .

أيام كئيبة تلك التى مرت بها رغم ما لاقت من ترحيب وحب لدى أهله ! . . . ولكن خطابات عزت التى كانت تصلها يومياً ، بل مرتين فى اليوم . كانت لها أكبر عزاء وسلوى فى وحدتها النفسية ، بل إن أخبار انتصاراته المتلاحقة . كانت مثار فخر بين قريناتها ، بل بينها وبين نفسها كلما هزها الشوق والحنين إليه . . .

ثم أرسلت إليه تزف البشرى . بشرى الجنين الذى تحرك فى أحشائها . كان خطابه مؤثراً للدرجة التى جعلتها تبكى مدى يومين كاملين ، وعدها أن يكون بجانبها ليستقبلاه معاً ، ابنهما الأول وثمرة حبهما الكبير . . .

وبكى الطفل . . . ومن رحلتها الطويلة تنبهت على صرخاته المتلاحقة فقامت إليه وقد أنستها زحمة الحوادث أن تلبس ثوبها ، ظلت بملابسها الداخلية ، وانحنت تتحسس ثيابه . آه. إنه غير مبتل ، لقد حان وقت رضاعته.

وأخذته فى حجرها وألقمته ثديها ، وبيد حانية راحت تتحسس شعره الذى يشبه شعر أبيه . . . أما عيناه فهما صورة من عينى عزت . . . حتى الشامة التى فى خده كأنما طبعت بالكربون من الوجه الصبيح الشاب إلى الوجه الطفلى الصغير ! . . .

ولكنه لم يحضر . وانقطعت أخباره قبل مولد الطفل بثلاثة أشهر ! . انقطعت خطاباته مع أنه يعلم أن خروج طفله الأول إلى نور الحياة بات وشيكاً ! . وتضاربت الأقوال ؛ من قائل إنه فقد . إلى قائل إنه مريض ، إلى قائل إنه معتقل لمخالفته الأوامر ! . . .

كلا ! ليس عزت بالذى يخالف الأوامر . ليس عزت بالذى يرتكب حماقة من هذا النوع . . . إنه مثال الضابط الشهم ، القوى الشكيمة . . . إنها تعرفه . . . تعرف هذه المزية : مزية الموت فى سبيل الوطن . . . أين هو إذن ؟ لم تجد جواباً شافياً على أسئلتها الملتاعة فى كل مكان لجأت إليه ! . . .

وعاشت بين اليأس والرجاء شهوراً ثلاثة قضتها فى جحيم من عذاب الشك والحيرة . شىء واحد كان يبعث الأمل فى نفسها : مرتبه الذى كان يصلها فى أول كل شهر . . .

وفى شدة محنتها ، وفى كابوس أيامها . . . ولد الطفل . خرج إلى الحياة لتستقبله بمفردها . بعيون باكية حزينة ، وعزت لا تعرف أراضيه ! . خيب ظنها ، تركها تستقبل الطفل دون أن يقف بجانبها ، وولد لتستقبله الحياة قرحها البكاء ، بدلا من زعرودة الفرحة لمقدمه .

— أيكون هذا الخطاب دعابة سخيفة من أحد الأصدقاء ؟

وحاولت أن تتذكر شكل الرسول ! ولم تستطع . . . أمسكت بالخطاب وراحت تعيد تلاوته عشرات المرات . . .

— أهذا خط عزت ؟

ووضعت الطفل فى سريره ، وأسرعت تضاهى خط الخطاب بخطاباته كلها واحداً واحداً . . .

— كلا ! إن خط عزت صغير ممشوق . . . أما هذا الخط ! . . ربما كتب الورقة فى عجلة لتصلها فى أسرع وقت لتكون على أهبة لاستقباله. إن خطه كبير . غير متقن . ليس كخطوط الخطابات التى يكتبها فى تأن وإتقان . . .

وبكى الطفل مرة ثانية . . . وغامت عيناها ، وتراقصت السطور أمام ناظريها . وأحست كأنها جمر نار يلسع خديها . . . وتساقطت دموعها لتطمس الكلمات ! . . .

— لا شك أنها دعابة سخيفة ! .

وتنبهت لبكاء الطفل المتواصل . لقد تركت المسكين قبل أن يتم طعامه و . . . ووقفت أمام سريره تنظر إليه وهو يرفس برجليه ويداه متشنجتان كأنما يحتج على معاملتها السيئة فى إطعامه . . .

واختفى من أمامها وجه الطفل ، وحل محله وجه عزت بابتسامته المشرقة وصوته العذب . وسمعت صوته يناديها :

— سلوى ! . . سلوى ! . . .

ووضعت كفيها على وجهها ، وتركت لدموعها العنان ! . . . ولكنها شعرت بيدين قويتين تحاولان أن ترفعا يديها من فوق عينيها . . .

إنه حموها ، الرجل الطيب المسكين ، كانت دائماً تحاول أن تخفى تخفى لوعتها عنه حتى لا تزيد أحزانه . . . فأحزان الرجال موجعة .

ورفعت كفيها عن عينيها ، ولكن نظراتها اصطدمت بوجه آخر ! وجه عزت بلحمه ودمه ! . . .

وشهقت شهقة مروعة ، ولم تستطع أن ترتمى بين أحضانه على الفور ؛ لأن سرير الطفل الذى لم ينقطع بكاؤه أبى إلا أن يثبت وجوده .

حنان

انحسر الموج عن الشاطئ . واندفعت الطفلة الصغيرة الجميلة بكل حيوية الطفولة البريئة ، اندفعت تجرى وهى تتعثر فى خطاها تسبقها صرخاتها المرحة ويداها ممدودتان كأنما تستعطف الموج أن يعود ، وفزعت الأم الشابة فأسرعت تصيح خلفها قبل أن يدركها المدمرة ثانية :

— حنان . . . ارجعى . . .

ورفعت سيدة نصف عينيها عن شغل التطريز الذى فى يدها . وكانت تجلس فى كابينها على بعد خطوات قليلة ، رفعت عينيها تتطلع إلى الأم الشابة والطفلة السعيدة المرحة ، وانطلقت من صدرها أنة جريحة وتمتمت تحدث نفسها .

— حنان . . . يا له من اسم ! .

وغامت عيناها خلف قطرات من الدموع ترقرقت ، ثم انحدرت فوق خديها الغائرين ، فرفعت يدها تتحسس ثم عادت تحدث نفسها من خلال دموعها :

— ترى كيف أصبحت الآن ابنتى أنا . . . حنان ؟ !

وتدفقت عذوبة الذكريات فانتشلتها من حاضرها عبر ستة عشر عاماً . وعلى شاطئ آخر ، شاطئ شعبى ، كانت تجلس وبجانبها مدحت وأمامهما طفلتهما حنان فى سلة كبيرة مما تحمل فيها الأطفال الصغار . . . كانت فى شهرها الثالث ، جميلة ، يانعة كالزهرة المتفتحة . . . ولكن شيئاً فيها لم يكن طبيعياً : صمتها المطبق وعدم تمييزها لمن حولها من الأشخاص والأشياء ! . . . لم تكن تعرف أمها . وهى أول من يتعرف عليه الطفل ! .. ولا أباها ! .. كل الأشخاص حولها سواء ! ..

كانت حنان طفلتها الأولى بعد زواج دام خمس سنوات . زواج أقل ما يوصف به أنه حلم كل عذراء . فمدحت زوج توافرت فيه كل مميزات فارس الأحلام . رشيق أنيق عطوف حبيب إلى النفس مريح للأعصاب . وهي تعبده من دون الله ، وترى فيه زخر أيامها وجنة حياتها . . . وحنان . طفلتها المعبودة . لكم هفت نفسها إلى الأطفال مدى الخمس سنوات . ولكن مدحت لم يكن يريد رغم حبه الشديد لهم . . . لم يكن يريد أن يكبل نفسه بطفل وهو يعبد حياة الانطلاق . حياة التحرر من كل الالتزامات التي تعوقه عن الاستمتاع بمباهج الحرية ، والأطفال قيد ، ولو كانوا قيداً من حرير ، ولكنه لم يستطع الصمود طويلا أمام إلحاحها . . وجاءت حنان .

وحمل الهواء إليها صوت حنان . الطفلة المرحة السعيدة وأمها تلعب معها بالكرة على الرمال ، ثم تجري خلفها فتدركها والطفلة تقفز وضحكاتها تملأ الجو . . .

لكم هفا قلبها إلى هذا الدور من سني الطفولة العذب لابنتها حنان ، لكنها لم تدركه . . . لم تدركه لأن حنان ابنتها لم تكن كبقية الأطفال ! كانت تأكل وتنمو وتزداد جمالا . ويكتسي وجهها بحمرة العافية ، ومع ذلك لا تتكلم ولا تتحرك ، ولا تناديها بأعذب لفظ حلمت به في حياتها ، لم تقل لها ماما لأن قدرة التمييز كانت تنقصها ، ولم تلفظ كلمة بابا لأن إدراكها كان قاصراً تماماً . . . بل كان معدوماً !

وأصبحت حنان الغصة التي يشرق بها حلقاهما ! . . أصبحت نكبة حياتهما من حيث أراداها فرحة وحدتهما . . . لم ينفع معها طب أو دواء . وأجمع الأطباء أنها ستعيش وتكبر ولكن عقلها سيظل متخلفاً ! . .

ووضعت يديها على عينيها تحجب الذكرى المرعبة وأحست نفسها تنسلخ من حاضرها ، وتتمتم بتوسل :

ـ مدحت . أريد طفلا آخر . أريد طفلا يشعرنى بأمومتى . . .

وسمعت صوته أقرب إلى البكاء :

ـ كيف ؟ ! . كيف يمكن أن تخطر ببالك هذه الرغبة القاسية ؟

وأجابته فى ضراعة :

ـ إن حنان لا تعرفنى . وأنا أريد طفلا يعرفنى يا مدحت ويناديني ويتجاوب معى . . .

وتحشرج صوته بدموع يحاول جهده أن يحتجزها :

ـ إن حنان محتاجة لكل حبنا ورعايتنا . . . إن حنان عاجزة وأى طفل آخر سيسلبها حبنا وحناننا . . .

وصاحت فى لهفة :

ـ لا تقل هذا . ستكون حنان دائماً فى المكان الأول من نفوسنا ، ومهما كان طفلنا الثانى فلن يستطيع أن يحرمها حناننا .

ـ هذه محض تخيلات . . . لقد لمست بنفسى كيف يحرم مثلها الرعاية إذا وفد على الأسرة طفل جديد . . .

وقالت فى عتاب :

ـ لسنا نحن يا مدحت ممن يتصرفون هذا التصرف الجائر . . .

ـ أنت واهمة يا رجاء . . . كلامك محض تخيلات . . . ولن أسمح لك بالخوض فى هذا الموضوع بعد الآن .

وجثت على ركبتيها وراحت تستعطفه بدموعها .

ـ أرجوك يا مدحت وأتوسل إليك . لا تحرمنى اللذة الوحيدة فى الحياة . . . لا تحرمنى الأمومة . . .

وصرخ فيها بيأس :

ـ إن كلامك كخنجر يطعننى فى صدرى ... أليست حنان ابنتك؟! كيف تقولين إننى حرمتك لذة الأمومة ؟ ! أتنكرين عليها بنوتك ؟ ! .

ــ إنها ابنتي يا مدحت ولكن أمومتي معطلة بالنسبة لها . . . إن شعور التجاوب بيني وبينها معدوم ! . . إنها لا تعرفني ! ! .

ــ وهل هذا ذنبها ؟ ! أما يكفيك ما بها حتى تريدين حرمانها عطفك لتغدقيه على طفل آخر فيكبر معها إحساسها بالاضطهاد من القدر ومنك أيضاً ؟ !

ودفن رأسه بين يديه مستنداً على ركبتيه فى يأس مر ، وخرج صوته كالأنين :

ــ رجاء ، اعقلى ، وإلا كانت نتيجة تصرفاتك وبالا علينا .

وقالت فى لجاجة :

ــ ولنفرض أنها استمرت على هذا الحال . . . التى تفكر . . .

ولم يدعها تتم بل صاح وقد تملكه غضب شديد :

ــ نعم لن أفكر فى طفل آخر قبل أن أراها قادرة على خدمة نفسها وفى غنى عن كل إنسان .

وفى صوت هامس قالت :

ــ هل هذا قرارك الأخير ؟

وأجابها بجزم :

ــ نعم . هذا قرارى الأخير ولن أتراجع عنه مهما حدث .

وأحست بجمر نار يحرق صدرها وزفرت بحرقة :

ــ ترى كيف أصبحت يا حنان ؟ . . .

وشدتها الذكرى وهى ترى الشهور تمر وحنان تزيد فى فجيعتها . نعم فجيعتها هى ، فإن كان يأسه من عدم تقدمها للشفاء وحزنه على مصيرها يعد فجيعة ، فإن ألم حرمانها من الأمومة وعقارب الغيرة التى تلدغ أحشاءها كلما سمعت طفلا ينادى أمه . . . هذه الأحاسيس كانت تدنو بعقلها شيئاً فشيئاً نحو النهاية !

وبدأ عامها الثالث وهى طريحة على ظهرها حتى الحركة لا تستطيعها. شيء واحد هو الذى تقدمت فيه صوت كالصراخ تفتح به فمها إذا تلكأوا فى إطعامها ثم تدير نظرها فيما حولها وترفع يدها وتضعها فى فمها وتحدث غرغرة .

ووصلت الأزمة برجاء إلى منتهاها ، فاختلت بمدحت ذات مساء وكانت خلواتهما نادرة ، وسألته وهى تحاول أن تدخل على نبرات صوتها شيئاً من الليونة والانكسار :

ــ علام عولت يا مدحت ؟

ولم يجبها بل رفع عينيه عن الجريدة متسائلا بعينيه وأحست بشجاعتها تخونها تحت وقع نظراته فتشاغلت بوضع صحاف الطعام أمامه على المنضدة الصغيرة . وخرج صوتها ضعيفاً مرتجفاً :

ــ ألم تصل إلى حل ؟

وأجابها فى دهشة :

ــ حل ؟ لمه ؟ .

ــ لقد تقدمت الحال بجنان وأظنها أحسن كثيراً الآن .

وانتظرت أن يرد عليها ، بأى كلام ، ولكنه تشبث بالصمت ، فأردفت بسرعة ، وقد أحست بشجاعتها على وشك أن تخونها :

ــ ألم يأن الأوان بعد ؟

فأجابها ببرود :

ــ أوان ماذا ؟ .

وغاظها بروده وأمدها ببعض القوة وارتفع صوتها قليلا وهى تقول :

ــ أوان إنجاب طفل .

وبنفس البرود القاتل قال :

ــ كلا .

وأحست لبروده مخالب تنزع قلبها من بين ضلوعها فانفجرت فى يأس :

ــ إذن طلقنى .

وكأنما نزلت على يافوخه بقضيب من حديد، فاتسعت عيناه وبرزت ونفرت عروق رأسه ، وجف حلقه ، وخرج من بين شفتيه شبه فحيح :

ــ أطلقك ؟ ! .

ــ نعم . لأحقق أمومتى المعطلة من زوج آخر .

وألجمت صراحتها لسانه فراح ينظر إليها غير مصدق واستدركت هى :

ــ ما دمت تبخل على بهذه الرغبة التى تقتلنى ببطء فلن أعيش معك . . . إن حبك وحنانك كله قد تحولا إلى ابنتك حنان وليس لى مكان فى نفسك . . . لقد كرهتنى يا مدحت . . . كرهتنى لدرجة أنك تضن على ببعض السعادة التى تملكها أنت ولن تكلفك شيئاً ! . . قلت لك ألف مرة إن سعادتى فى الأمومة وقد حرمتنى منها . فلا أقل من أن أبحث عنها مع آخر ! . .

وكأنما كلماتها هى القشة التى طفحت بكيل همومه فصرخ وقد انفجرت ينابيع حقده جميعاً .

ــ أيتها المجردة من كل عاطفة، يا جاحدة ، يا قاسية ، إليك عنى . اذهبى . . . تزوجى . . . انجبى ، أما أنا فسأعيش لابنتى . واسعدى أنت بحياتك . فليس لك بعد الآن موضع فى بيتى . . .

وسقطت يديها من فوق عينيها اللتين غاصتا فى الهجر أمامها ، ولم تبك . . . لم تسقط دمعة واحدة من عينيها . كانت أحشاؤها تبكى .

نعم . لقد تزوجت ولكن الله حرمها من الإنجاب .

وأحست بحركة عجلات تمر بالقرب منها فوق الأرض المرصوفة فالتفت بطرف ذابل فإذا بعينيها تصطدمان بشابة جميلة يانعة وممتلئة الجسم ، فارعة الطول . تجلس فوق كرسي فى عجلات مستندة الرأس على وسادة مثبتة على ظهر الكرسى ، وعيناها لا تطرفان ! و يداها راقدتان فى حجرها فى استسلام ومن خلفها رجل طويل نحيف أسمر اللون أبيض الشعر فى لون الثلج يدفع الكرسى ببطء بينما تسبح عيناه فى الفضاء اللانهائى غير عابئ بما حوله من عجيج الحياة ! . .

وألجم فوها . . . لم تصدق نظرها . أصابها ذهول . . . ولم تفق إلا والعربة قد اختفت عن ناظريها ، وصاحت فى يأس :

ـــ حنان . . . ابنتى .

وسمعتها حنان الأخرى . . . الجميلة الصغيرة . والتفتت إليها وقذفتها بالكرة وهى تصيح فى نشوة ثم جرت رافعة يديها نحو الموج المنحسر تحاول أن تستوقفه فأسرعت إليها بالكرة وقد غشيت عيناها بالدموع ، ولكن الصغيرة حدقت فى وجهها المتقلص ، ثم جرت منها مذعورة وارتمت فى حضن أمها . . .

الشاطئ

الموج والصمت والغروب .

كل شيء عليه غلالة ذهبية من شعاع الشمس التى يبدو قرصها المتوهج وكأنه يهم بالغوص فى لجة البحر عند حافة الأفق . . . وعن كثب منه لمحت عينها خيطاً متراقصاً من الدخان الأسود ينبعث من سفينة كبيرة خارجة من الميناء إلى عرض البحر . إلى أين ؟ . لا أحد يدرى إلا من على ظهرها من الراكبين . أما بالنسبة لها هى فهو المجهول . ذلك المكان الغامض الذى لا تعرفه . وأغمضت عينيها وتصورت نفسها وقد حملها خادم من الجن فألقى بها فى هذه اللحظة على ظهر تلك السفينة التى لا تدرى وجهتها .

وغمرتها هذه الفكرة الوهمية بسعادة ذهبية كتلك الغلالة التى تنفضها أشعة الغروب على الكائنات من حولها .

لقد لبثت سنوات تزيد على العشر تدرى فى كل لحظة من لحظات كل يوم من أيامها إلى أين هى ذاهبة ، بل إنها تدرى ذلك دائماً أكثر مما ينبغى ، قبل السادسة صباحاً بدقائق تكون قد أتمت ارتداء ثيابها على عجل ونزلت تستقبل الهواء البارد فى شارع الترعة ، فلا بد لها من إدراك القطار الباكر إلى الزقازيق . ولكنها قبل ذلك تكون قد اختلست دقائق قبلت فيها هدى ونجوى وفتحية وإبراهيم وسميحة وهم نيام ، خمسة بالتمام والكمال أخرجتهم أحشاؤها الواحد — عفواً ! بل الواحدة — بعد الواحدة إلى نور الدنيا فى هذه السنوات العشر وفى كل مرة يصر « صبرى » على أن ولى العهد سيهل بطلعته البهية فى المرة القادمة وفى المرة القادمة أيضاً تأتى فتاة جديدة ، وفى المرة الرابعة أشرقت طلعة إبراهيم ولكن المسألة فيما يظهر صارت عادة روتينية مثل مواعيد القطار الذى تركبه فى الذهاب إلى

الزقازيق والإياب منها كل يوم لتعانى مشاق التدريس . فبعد إبراهيم جاءت سميحة .

وسوت بدرية خصلة من شعرها عبث بها الهواء وهى مغمضة العينين . وأوشكت أن تتحسس بيدها خاصرتها . فهى فى شك من أن رقم ستة يوشك أن يشرع فى الوجود .

وقطبت حاجبيها . لن تنسى الخلاف الذى ثار بينها وبين صبرى لأنها أعلنت بعزم قاطع عن رغبتها فى الاكتفاء بهؤلاء الخمسة من الذرية الصالحة . وتظاهر صبرى بالموافقة . وبدأت تتعاطى حبوب منع الحمل بانتظام . وكانت ليلة عاصفة تلك التى اكتشفت فيها أن صبرى استبدل الأقراص بأقراص شبيهة بها مما يعالج به الصداع .

وبدأت الحياة تبدو لها عبثاً . كأنها جاموسة محكوم عليها أن تدور فى ساقية مغمضة العينين . وكلما همت بالتقاط أنفاسها صاح الموكل بها أن تستمر وشخشخ فى يده بالسوط .

هذا مصير تعرفه جيداً . تعرفه بحذافيره المتكررة . وهى تريد شيئاً آخر . تريد وجهة مجهولة تمضى بها إلى أفق جديد . إلى شاطئ جديد . بعيد . لا تريد أن تعرف عنه شيئاً سوى أنه جديد .

لقد كادت تجن بعد تلك الليلة العاصفة . إنها ليست ببعيدة . لقد حدثت منذ أربعة أيام فقط . وتدخلت لبنى بنت خالها ، جزاها الله خيراً ، وألحت هى وزوجها عصام على اصطحابها بمفردها — لا رجل ولا أطفال ! — إلى الشاطئ أسبوعاً للاستجمام من كل شىء حتى لا تنهار أعصابها ، وأمام العاصفة لم يجد صبرى بداً من الانحناء .

وكان استجماماً حقاً ... يومها هذا الأول على الشاطئ الضاحك بزرقة الماء وزرقة السماء . آه لذلك الأزرق الساحر الصفاء . وآه لأخيلة جميلة بهيجة وعتها ذاكرتها يوم كانت طالبة فى الجامعة تحب الشعر وتحفظه .

وتحب الموسيقى وتسمعها . ولكن ذلك عهد مضى وانقضى . وها هي ذي تلقى ذلك الأزرق الساحر بالصفاء في يومها هذا الأول على الشاطئ لا كما تلقى الصديق القديم . بل كما تلقى غريباً لا عهد لها به من قبل . ولكن اليوم كان بديعاً من كل وجه . حتى لقد وجدت نفسها مدفوعة بحكم الصنعة — والزوجية وإدارة البيت والأمومة نفسها تغدو بمضى الوقت صنعة فى كثير من جوانبها — تحاول أن تسأل نفسها حين أتت لبنى بالشطائر للغداء :

— ترى ماذا يأكل اليوم صبرى والأطفال ؟

ولكن السؤال لم يلبث أن تسرب من ذهنها كما يتسرب الماء من بين الأصابع المنفرجة ، وقالت لها لبنى وقد لمحت شرودها الوقتى :

— من غرور الآدمى أن يظن الدنيا ستتوقف عن الدوران والحركة لولا شخصه الجليل ، ثقى أنه لا لزوم لشرودك وأن من تكدرين صفوك بالقلق عليهم لا ينقصهم بغيابك شىء .

وقال عصام نكتة من نكاته الصاخبة ، وأخذ كل من ثلاثتهم يخطف الأكل من الآخر . هذا المرح بلا شك سر حيويتهما وشبابهما المتجدد. فلهما ابنتان متزوجتان وابن يطلب العلم فى الخارج . ولكن القلق لا يجد سبيلا إلى قلبيهما . وما أشد حبهما للمشى . أما هى فشد ما تكرهه وهى تمشى كل يوم بالإكراه عدة أميال من المدرسة إلى المحطة . ومن البيت إلى المحطة وبالعكس . لقد رفضت أن تبارح مكانها من الشاطئ عندما عزما عليها بالسير معهما فوق الكورنيش ساعة أو أكثر . وآثرت هذه الوحدة مع الموج والصمت والغروب . . . وصوت راديو ترانزستور يأتيها من بعيد يحمله إنسان مجهول يرسل أغانى أم كلثوم من تلك المحطة الجديدة أغنية وراء أغنية . . .

وتلفتت تصعد النظر صوب الكورنيش . لقد طال غيابهما ثم شغلت نفسها بلملمة الأشياء المبعثرة استعداداً للإياب إلى الشاليه متى عادا .

و وجدت يداً تلملم معها الأشياء . لا بد أنه ذلك البحار المهذب الذى أتحفه عصام بالسجائر و بعض النقود نظير خدماته . ولكن البحار يرتدى سروالا من سراويل الصيادين لا بنطلوناً أنيقاً جيد الكى . و رفعت بصرها فى آخر شعاعات الغروب .

— أهو أنت ؟ غير معقول ؟ . . .

والتقت يداهما فى مصافحة قوية . وكان واقفاً وظهره إلى البحر فحجب ما بقى من قرص الشمس ، أما السفينة الراحلة نحو المجهول فكان قد اختفى كل أثر لها .

ولم يعد المجهول مجهولا وقد تشبثت عيناها بعينيه . فالسنوات الإحدى عشرة لم تغير منه كثيراً . حتى هذه السمرة لعلها من أثر الشمس على الشاطئ . فعيناه الضاحكتان لم تزالا ينبوعين من صفاء وفهم ومرح . ولكن ما هذه السحابة التى عبرت بهما الآن وهو يتأمل ملامح وجهها . هل يراها تغيرت إلى هذا الحد؟ البطون الخمسة ورحلة كل يوم. والسنوات التى تكر بلا رحمة . ولكن هذا كله كان حريا أن يتبدل لو لم يفترقا .

وجلس وجلست وراحت عيناه تربتان على ملامحها واحداً واحداً كأنه يتفقد أشياء عزيزة طال به افتقادها . وبصوته الأجش الخفيض أخذ يسألها عن أحوالها . سؤال عادى ككل سؤال يلقيه إنسان على إنسان بعدطول افتراق . ولكنها أحست بما وراء الكلمات من شجن يوشك أن يكون عتاباً . ولكنه يعلم أنه لا ذنب لها . وأن أباها — غفر الله له و رحمه — هو الذى أبى إلا أن يصنع ذلك الفراق .

— من أبوه ؟ من أسرته ؟ .

وكانت ضعيفة . ولم تستطع وهى الجامعية التى أوشكت أن تتخرج أن تدافع عن القيم الجديدة التى تؤمن بها . أما الحب والغرام فعند ذلك الرجل من الكبائر والمحرمات . ودفنت جرحها فى قلبها وهى تراه يطرد

الشاب الرقيق ويرده رداً عنيفاً بعد أن جمع المعلومات عن أسرته المتواضعة فى القرية . لم يكن هذا الأب ــ رحمه الله ــ يقيم وزناً للشعور الرقيق وحب الفنون وحب الحياة والآمال العريضة فى قلوب المحبين .

لا شىء تغير فى سعد . وبصوت متعثر حاولت أن تموه تعثره باصطناع المرح لخصت له أحوالها فى إحصاء سريع للعمل والسفر والذرية .

ــ وأنت ؟ .

وتجهم وجهه تجهماً عابراً .

ــ وحيد إن شئت . وغير وحيد .

وبسخريته المعهودة رسم لها فى بضع كلمات قريبة أمه القروية التى تعبد البيت وتدق صدرها بيدها إذا حدثها عن الذهاب معه إلى السينما . وعن الأطفال الثلاثة الذين تتحسر على أنهم لم يصبحوا سبعة .

وضحك وضحكت .

ــ أنا وأنت هنا . والماء والسماء . لقد كفر الزمن إذن عن كل أخطائه فى حقنا . كم ستمكثين ؟ .

وتنهدت وقالت :

ــ أسبوعاً . انقضى منه اليوم .

وبلهجته المرحة هتف بها :

ــ نعمة جزيلة . « أسبوع فى الجنة » . عنوان جيد من عناوين الأفلام . أليس كذلك ؟

وفجأة تغيرت ملامحه من الهزل إلى الجد . هكذا كان عهدها به حين يقطع الهزل فجأة ليقول أخطر ما فى ذهنه من قرارات . لقد صنع هذا يوم صارحها فى الرحلة الجامعية بحبه . ترى ماذا سيقول الآن ؟ ها هو ذا يمد يده بحركته العصبية ويتناول يدها بين يديه ويضغطها بعنف فتشعر

بالرجفة القديمة تسرى فى أوصالها جميعاً وتتعلق عيناها بشفتيه . كأنها توشك أن تسمع منهما صوت قدرها :

ـــ اسمعى يا بدرية . سنكون مجرمين فى حق نفسينا إذا نحن تعامينا عما أحسن به القدر إلينا ، وقد كفر بهذا اللقاء عن كل ما أفسد به حياتنا فى هذه السنين . كفانا ضياعاً يا بدرية ! .

وأحست بالعالم يدور بها . وماء البحر يفور كالطوفان ويكاد يغمرها وغضت بصرها بسرعة تستجمع شتات قواها المبعثرة . وازدادت يده إلحاحاً على يدها . وتحول صوته إلى هدير طنان فى أذنيها .

ـــ كفانا ضياعاً . كفانا . . . كفانا . . .

وفى شبه حلم سمعته يقول لها قبل أن تفلت أصابعه المتشنجة يدها :

ـــ غداً فى العاشرة صباحاً فى إتينيوس . لن ندع قطار السعادة يفوتنا مرة أخرى . أتسمعيننى .

وألفت نفسها تومئ برأسها من غير أن تقوى على فتح عينيها . ولما فتحتهما بعد برهة كان ظهره يلوح لها على بعد خطوات . وصوته لم يزل يطن فى أذنيها ، وموضع أصابعه المتشنجة على يدها لم تزل تحسه يبعث الخدر فى ذراعها كله .

غدا . . .

ولم تنم ليلتها من التفكير فى ذلك الغد !

استولت عليها دوامة رهيبة لا ترحم : هدى ونجوى وفتحية وإبراهيم وسميحة عيونهم اللامعة القلقة تتعلق بها عن بعد . وأيديهم الصغيرة تمتد لتتعلق بأذيالها . وسعد يطن فى أذنيها صوته الهادر يدعوها ألا يفوتهما قطار السعادة . . . كفانا ضياعاً كفانا . . . كفانا ! . . . وتمرغ فى الوسادة رأسها المحموم وتتمنى أن تشرق الشمس . شمس ذلك الغد

المرهوب. فلم تعد لها طاقة بما يحمله لها الليل من قسوة وعذاب وشكوك وصراع . . .

قطار السعادة ؟ ! . . .

ها هي ذي عقارب الساعة تدنو ببطء من العاشرة . وهي جالسة أمام النافذة . نافذة قطار آخر يشق طريقه لا إلى المجهول . بل إلى مكان تعرفه جيداً طيلة هذه السنين .

أتراه الآن أمام النافذة في ذلك المقهى الكبير وعيناه تتحسسان الطريق بحثاً عن طلعتها كلما وقفت سيارة أتوبيس ؟ كم سيجارة أحرقها حتى الآن وهو في الانتظار ؟ كم سيجارة سيحرقها قبل أن يوقن بأنها لن تأتي ؟

وتنهدت بدرية وأرسلت طرفها من نافذة القطار ، وملأت صدرها من آخر نسمات البحر التي يحملها الهواء من الشاطئ البعيد ، الشاطئ الذي جاءته مفتوحة الذراعين لترتمي أسبوعاً بين أحضانه وتنسى فيه أعباء السنين إلى حين . وها هي ذي بعد يوم واحد تغادره هاربة من سراب الأحلام إلى دنيا تعرفها ، وأيد خمسة تمتد على البعد لتتعلق بأذيالها ، فترسم على وجهها المكدود ابتسامة واهنة وتملأ صدرها مرة أخرى من الهواء وقد اختفت منه في هذه المرة رائحة الشاطئ البعيدة

حجرة مكيفة بالهواء . . .

أزعجتها كلماته لحظة يسيرة خوفاً من أن تكون أذناها قد خدعتاها . فأحياناً يثقل سمعها فتختلط عليها معانى الألفاظ . ولكن صوته فى هذه المرة اخترق أذنيها ، وتسلل — رغم هدوئه — إلى عقلها مباشرة . ولم يعد هناك مجال للتكذيب . . . فارتعدت وأحست بالدم كله يهرب من جسمها . . . وتحولت إلى قطعة من الثلج . شيء واحد كان يعمل بإصرار . عقلها . . . أحقاً تقول عيناه ذلك ؟ .

كان حلم حياتها ذات يوم أن تعمل مع « الدكتور إبراهيم على » الطبيب العبقرى الذى طبقت شهرته الآفاق . . . وأصابتها نشوة وأحست بقلبها يكاد يقفز بين ضلوعها حينما علمت أنه عين مديراً للمستشفى الذى تعمل به .

وأخذت نفسها بالحزم ، وراحت تعمل بلا كلل لتثبت له خطأ النظرية التى تسيطر على عقول الرجال : أن المرأة مهما بلغت من المناصب فهى هى . . . الأنثى التى يبهرها الزخرف ، وتتعلق عيناها ببريق المظاهر ، وتنسى نفسها أمام سطوة الجاه . . .

لم تكن تعلم أن للاستقامة والترفع ضريبة فادحة . . . إن لم تدفعها من سمعتها — الناصعة البياض — فلا أقل من أن تستقضى من عملها . فليس للشرف والنزاهة مكان بين مرضى النفوس . . .

ولكن . كيف استطاع هذا الدخيل أن يقنع الدكتور إبراهيم بهذا الوضع المقلوب ؟

— الدكتور سيد يقول هذا . . . وأعتقد أنه لا يكذب ! .

وراحت تتذكر بجهد أول مرة وقعت فيها عيناها على الدكتور سيد

هذا . . . كانت تمر فى الردهة مسرعة لتكون بجانب الدكتور إبراهيم أثناء قيامه بإحدى العمليات الجراحية ، حينما اصطدمت عيناها بشخص قمئ الهيئة ، أشبه بالفأر ، انحنى لها فى احترام زائد حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه ! وردت تحيته فى عجلة دون أن تعيره التفاتاً ، ظناً منها أنه أحد المترددين على المستشفى للزيارة ، وما كان أكثرهم . . .

وما كادت تلبس رداءها الأبيض وتعاون الدكتور إبراهيم على ارتداء ثيابه المعقمة حتى فوجئت بدخول هذا الشخص حجرة العمليات ، وفى أدب جم انحنى بين يدى الطبيب الذى بادر على الفور يقدم كلا منهما للآخر :

— الدكتور « سيد » طبيب الامتياز الجديد بالمستشفى . الآنسة « سعدية » رئيسة الحكيمات ودينامو المستشفى الذى لا يعرف الراحة . . .

وأمسك بكتف الدكتور سيد وهو يقول بلهجة ودية :

— هأنذا أمسك الخشب ! .

وضحك الثلاثة فى مرح ، ولا تتذكر بعد ذلك أنها رأته إلا فى مناسبات قليلة جداً تبودلت بينهما تحية عابرة ، ولكنها لم تنس أن تحيته لها كانت دائماً بانحناءة شديدة من رأسه ، حتى ليكاد رأسه يلمس ركبتيه !

ثم ترامت إليها أنباء غير سارة عن الدكتور سيد . وأنه يتخذ من حجرته وكراً فى الليل : يمارس فيها أعمالا لا تليق بشرف المهنة ! . . .

ثارت ، ولكنها لم تفعل شيئاً ، أرادت أن تتأكد بنفسها من صدق الرواية ، وكان هذا دأبها دائماً . . . فأن تكون مظلومة خير ألف مرة من أن تكون ظالمة ، فحين يظلمها أحد تستطيع أن تسترد حقها بنفسها ، أما إن ظلمت أحداً فعسير عليها جداً أن تسترد اعتبارها أمام من ظلمته . لأن التجنى سيكون من صفاتها حتى ولو كانت بعد ذلك على حق . . .

ومرت الأيام دون أن يصلها جديد ، أو تلاحظ ما يثير الشك ،

وحمدت الله فى سرها ، واستراح ضميرها لأنها لم تسئ الظن . . .

وذات ليلة ، أصيب أحد المرضى بعد منتصف الليل ، بنوبة قلبية حادة ، وأثناء مرور سعدية فى دورتها الليلية ، سمعت أنيناً متقطعاً من إحدى غرف الدرجة الأولى ، فأسرعت تفتح الباب فإذا بها أمام مريض فى النزع الأخير ! وحاولت أن تسعفه ، ولكن الحالة كانت من الخطورة بحيث يتحتم وجود الطبيب المنوب معها ، وضربت الجرس عدة مرات « لبثينة » الممرضة المختصة بالحجرة ، ولكنها لم تتلق أى جواب ! . فجرت كالمجنونة إلى حجرة الطبيب ، وأسرعت تفتح بابها بعنف ، ولكنها تراجعت مذعورة لهول ما رأت ! ... كان بداخلها الدكتور سيد ومعه بثينة !

ومرت الأحداث بعد ذلك بسرعة مذهلة . فهناك مريض فى النزع الأخير ، وطبيب يتعين عليه أن يسرع لإسعافه . . . وممرضة واجبها أن تكون بجانبه ... ورئيسة حكيمات مسئولة عن كل خطأ يحدث أثناء الليل !

وتمت الإسعافات بصورة آلية جداً . . . ظل الثلاثة بجوار فراش المريض يعملون فى سرعة وصمت ، والرجل يتأرجح بين الحياة والموت . . .

ومع بزوغ أول أشعة النهار ، استرد أنفاسه ، ثم راح فى سبات عميق . . .

وخرجت سعدية من حجرة المريض دون أن تنبس بكلمة ، مضعضعة الرأس والحواس ، وارتمت على فراشها بكامل ملابسها .

وعند الضحى استيقظت ، ورأسها يكاد ينفجر من صداع مميت ، فقامت إلى الحمام تغتسل ثم طلبت «بثينة» ، فقيل لها إنها خرجت منذ الصباح الباكر ، لأن نوبتها كانت فى الليل ! . . .

وأخذت تسترد هدوءها شيئاً فشيئاً .

يجب أن تمنع مثل هذه المهازل أن تحدث فى المستشفى . يجب أن يضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أن يتخذ من ملاذ

الرحمة الوحيد للمرضى مكاناً لقتلهم . . . ماذا كان يحدث لو أنها لم تفطن إلى الصوت الشاكى بالصدفة ؟ !

وعند الظهر طلبها الدكتور إبراهيم لمقابلته .

حسناً . لقد أسعفها الحظ ، وبدلا من أن تطلب هى مقابلته أتيحت لها فرصة أفضل . يجب أن يوقع عقاباً صارماً على الدكتور سيد هذا ! . أما هى فستعرف كيف تؤدب بثينة بطرقها الخاصة . . . فالدكتور سيد تأديبه ليس من اختصاصها . . .

ودخلت عليه بكل اطمئنان تملؤها الثقة فى عدالته وحسن تصرفه . ولكنها روعت بنظرة الجد الصارم التى تنبعث من عينيه . والمقابلة الجافة التى تلقاها بها ... لم تعتد منه سوى الابتسام المهذب ، والترحيب والمودة !

وألجم لسانها الموقف ، وانتظرت أن يطلب منها الجلوس كعادته ، ولكنه لم يفعل . وابتدرها بصوت هادئ برغم شحنة الغضب التى كانت تتوارى خلفه : لماذا فعلت ذلك ؟ .

ولم تفهم ماذا يقصد ، وزادتها الدهشة إمعاناً فى السكوت . . .

— ليس من حقك أن تهجمى على حجرة طبيب وتفتحيها بدون إذن . . .

وفغرت فمها . فهذا آخر شىء كانت تنتظر أن تسمعه منه . . .

أكان الأفضل إذن أن تترك المريض يموت ! . أليس من حقها أن تلجأ إلى الطبيب المنوب بأى شكل إذا استدعت حالة المريض ذلك ؟ ! .

ولم تستطع أن تكتم غيظها ، ورغم رهبة الموقف ، خرجت عن هدوئها وهى متأكدة أن الحق كله معها . . . وستناله بتوضيح الموقف الذى لا بد أن الدكتور سيد أفهمه إياه على غير حقيقته . . .

— إن المسألة ليست بهذه السهولة يا سيدى . فالمريض كان على وشك الهلاك ، ثم إن التبعة تقع على الممرضة المهملة التى وجدتها فى حجرة الطبيب ، كما تقع على الطبيب أيضاً . . .

وسكتت تسترد أنفاسها من هول ما ستقول . وعيناها معلقتان بكلمة من شفتى الطبيب ترد إليها حقها المهضوم ، وما إن أتمت حديثها حتى أتاها صوته خافتاً كأنه الهمس :

— لقد سمعت عنك ثناء كثيراً يا سعدية ، ولمست بنفسى حبك لعملك وتفانيك فى الخدمة ، ولكن رغم هدوئك الظاهرى ، إلا أنك عند ما تثورين تصبحين « طويلة اللسان » ! . . .

وصعقت لكلماته . فلم تتصور أن يكون رده على حديثها هذه الصفة التى هى منها براء . وبجهد استطاعت أن تسيطر على نفسها وتسأله فى هدوء :

— وماذا فعلت لأستحق منك كل هذا التأنيب؟ ماذا قال لك لتصدقه وتكذبنى ؟ ! . . .

— لم يقل لى شيئاً سوى الحقيقة . . ..أنت لا تدرين ما يخرج من فمك أثناء ثورتك . اسأليني أنا ! . إنه بلا شك أذكى من أن يجهل الحقيقة ، فلماذا يغالط ؟ . لماذا يغالط ؟ لا بد أن هناك سبباً قوياً . قوياً جداً . . . أقوى عنده حتى من الحق . ومن العمل ، ومن الضمير ! . . .

ونظرت إلى عينيه لتستوثق من جدية ما يقول ، فهالها ما رأت فى إنسانيهما من « دعوة » صريحة ساخرة ! . . . وانتابها ألم ممض ، وسقطت جميع القيم فى نظرها . . .

— أحقاً تقول عيناه ذلك ؟ أحقاً تقولان لها : كلنا « سيد » يبحث عن بثينة ؟ . . . هذا لن يكون ! .

وانتفضت تنفض نظراته عنها ، واندفعت إلى الباب تفتحه ، فصفع وجهها سخونة الجو المشبع بعناء الحياة . بعد جو التسلط والرخاء ، والراحة داخل الحجرة المكيفة الهواء . . . ووقفت لحظة خلف الباب تسترد أنفاسها ، ثم سارت فى طريقها رافعة الرأس . شامخة الأنف ، من غير أن تلقى نظرة واحدة إلى الوراء . . .

الليمونة كاملة . . .

جلست فى الفراش ويداها معقودتان حول ركبتيها وقد عصبت رأسها بمنديل لعله يخفف وطأة الألم الممض الذى يكاد يخرج عينيها من محجريهما . . . وزفرت زفرة طويلة وصوت أمها الخافت يأتيها عبر الحجرة :

— علام عولت يا ابنتى ؟ الرجل ينتظر رداً هذه الليلة . . . وإنى لخجلة منه ، لا أدرى كيف أجيبه بعد كل هذا التسويف .

علام عولت ؟ ! وهل ترك لها الاختيار ! إنها مجبرة أن تقبل أو . . .

وسرى صوت أمها يقطع عليها تيار أفكارها . وفى نبراته أسى ولوعة :

— لو كنت أجد منفذاً واحداً لرفضت . فكرى فى حالتنا .

يا لخيبة آمالها ! يا لتعس أيامها ! . . أبعد كل هذا المجهود الذى بذلته حتى حصلت على الثانوية العامة ، يحال بينها وبين إتمام تعليمها . . .

وسرح خيالها ، وإذا بصوت والدها الحانى يسرى فى أذنيها كأنغام الموسيقى العذبة : . . . ستكونين أول فتاة تعمل فى السلك السياسى . . . ليكن التفوق رائدك . . . كانت هذه أمنيتى التى لم تتحقق . . . ولكنى سأحققها فيك . . . وأخوك يرغب أن يكون طبيباً . . . ماذا قلت ؟

وهل تحلم بغير هذا العمل الذى أعدت نفسها له منذ بداية مرحلتها الثانوية ؟ كانت تتطلع دائماً إلى السفر إلى الخارج . . . منذ صغرها وهى تعشق كتب الأسفار . ومنذ قرأت فى الجرائد عن أول سفيرة لأمريكا فى إيطاليا ، وهى تتتبع أخبارها ، وترى نفسها بعين الخيال تتدرج فى المناصب حتى تصل إلى هذا المنصب . . . تمثل بلدها : فى فرنسا ، لندن ، أمريكا ، الهند ، الصين ، إيطاليا . . . آه ! ليتهم يبعثون بها إلى إيطاليا ، بلد الفن والجمال . . .

— هل استقر رأيك على شيء يا عديلة ؟

آه ! هذا صوت أمها تريد أن تعرف رأيها ، ولكن . هل تستطيع أن تقرر الآن وأمامها أربع سنوات فى التعليم الجامعى . . .

— لقد قابل أخاك أمس ، وطلب منه أن يبلغك تحيته ، ورجاه أن يعرف رأيك الأخير هذه الليلة ، ليستطيع تدبير أموره ليكون على أهبة الاستعداد فى نهاية هذا الشهر . . .

— نهاية هذا الشهر ؟ ولمَ كل هذه العجلة ! .

وحاولت الأم الطيبة أن تغتصب ابتسامة وهى تقول :

— الرجل متيم بك ، لو بيده الأمر لتزوجك الليلة... ولكنك أنت ...

وشعرت عديلة بيد تعتصر قلبها !

لماذا مات والدها ؟ . . . لماذا خذلها ؟ . أبعد كل الذى كان يمنيها به يتركها هكذا للأقدار ؟ . كيف يمكن أن يتبدل حالها فجأة من النقيض إلى النقيض ؟ ! . منذ ستة أشهر فقط كانت حياتها تمضى على خطة مرسومة . . . خطة رسمتها مع والدها الحبيب لطريق جهاد حافل فى دنيا التعليم . . . وبين يوم وليلة . انتهى والدها ! . كيف انتهى ؟ لا تدرى ! كان فى أوج صحته ، وريعان شبابه ! . . .

أصيب بنوبة قضى على أثرها ، وعرف السبب بعد موته : خسارة فادحة فى المضاربة فقد على أثرها آخر قرش يملكه ! . وانتهى كل شيء . . بانتهائه ! . انتهت حياة العز التى كانوا يحيونها ، ولم يجدوا من يمد لهم يد العون . . . تنكر لهم الجميع . . . فامتدت يد الأم إلى أثاث البيت تبيعه قطعة قطعة . . . فأخوها فى شدة الحاجة لكل مليم ينفقه على تعليمه بكلية الطب ، ومن الإجرام أن يحرموه من كليته ، وأمامه ثلاثة أعوام . . . وهو مجد ، ثم إنه بر الأمان الذى تتطلع إليه والدتها ليقيل عثرتهم و ... والصغير لم يتجاوز الرابعة عشرة ، وأمامه شوط طويل فى التعليم . . . وهى . . .

وانهمرت الدموع سخينة من عينها .
لماذا يضحى بها ؟ ! . لماذا تحرم من تعليمها ؟ . . .
— إذا استثنينا رغبتك فى التعليم ، فالرجل ممتاز : أخلاق ووجاهة ، ومال ، ومركز — وهو يعبدك . فكرى يا عديلة ، فكرى يا ابنتى . . . ستعيشين عيشة منعمة فى فيلته المؤثثة بأفخر الرياش . . . ثم لا تنسى أنه سيتكفل بجميع مصروفاتنا حتى يتخرج شقيقك .
ولم تستطع أن تسيطر على أعصابها ، فانفجرت تبكى بأعلى صوتها ، وأسرعت أمها تحتضنها وتنشج معها واختلطت دموعها بدموع ابنتها . . .
وأحست الفتاة بوخز ضميرها للآلام التى تسببها لأمها الطيبة ، بشكل خارج عن إرادتها ، وقالت من خلال دموعها :
— سأعمل يا أمى ، سأعمل وأتم تعليمى وأنفق على البيت .
وهزت الأم رأسها فى أسى ظاهر وقالت : بكم تعملين ؟ قولى لى يا حبيبتى ... أيكفى ماتتقاضينه للطعام أو الكساء أو مصروفات أخيك؟ وهل ستساعدك صحتك أن تجمعى بين العلم والعمل والتفوق الذى تنشدينه؟ أخيل إليك أننى لم أفكر فى إيجاد مخرج لحالتنا قبل أن أعرض عليك الزواج ؟ . ولو كنت أنا أصلح لأى مهنة لما توانيت عن العمل . . .
وضمتها إلى صدرها تربت بحنان على شعرها ووجهها واستطردت :
— ومع كل لا تحزنى . . . سنحاول هذه الليلة أيضاً التأثير عليه ، ربما لان قلبه وتراجع عن إصراره وأذن لك بإتمام تعليمك بعد الزواج .
— ألم تحاولى معه قبل ذلك يا أماه ؟ . إنه عنيد ، يفكر بعقلية أمثاله الذين يروا فى المرأة متعة لا شريكة .
وتراءى لها « عبد المقصود » بصوته ذى البحة التى تشبه الحشرجة ، حينما يدخل عليهم ويداه محملتان بالأكياس ، وابتسامته العجيبة تملأ وجهه المستدير ، وكأنما تسمع صوته وهو يقول :

— إيه يا ست عديلة ... ما هذا الدلال . . . سأجعلك ست الناس كلهم . . . انظرى ماذا أحضرت لك : سمكاً من الصنف الذى يحبه قلبك بورى معتبر . . . وصندوق تفاح دليشس أصلى . . . الولد شكرى الفكهانى لا يظهره إلا لأهل المفهومية بالناس الأكيلة ... عدم المؤاخذة المسألة ليست مسألة مقدرة ، المسألة مزاج قبل كل شىء . . . هو حد واخد منها حاجة غير اللقمة أولا . . . والهدمة ثانياً . . .

ويضحك بفجاجة معجباً بمستواه العالى فى فلسفة الحياة ، وتحس بفمها كالحنظل وهى تستعيد حركاته وهو يقول :

— بينا يا ست أم جلال على المطبخ ، سأطعمكم طبق سمك لم تأكلوا فى حياتكم مثله ، لا تقولى لى الحاج زكى السماك ولا غيره . . .

ثم يقول وهو يغمز بعينه ناحية أمها : محسوبك يا ست عديلة طباخ ماهر ... سأعلمك أنا الطبخ على أصوله ... قال جامعة قال ... البنت من دول متى اتجوزت وجوزها مهنيها ومكفيها ومعيشها أحسن عيشة ، ناقصها إيه . . . إنت غاوية تعب ووجع قلب . . .

كيف ! . . . كيف تستطيع أن تندمج مع هذا الرجل فى حياة واحدة ؟ ! إن آخر ما يطمع فيه من دنياه ، أكلة شهية يملأ بها بطنه . . . والطريقة التى يأكل بها . لا يمكن أن تفتح نفسها على الإطلاق حتى ولو قدم إليها أفخر أنواع الأطعمة . . . ورغم المنشفة التى يمسح بها فمه . إلا أن حركته نفسها ومنظر وجهه يجعلانها تحس بإصرار أنه فى الحقيقة يمسح فمه بظهر يده . ثم لا يلبث أن يتجشأ .

أعوذ بالله ! . . . كيف تستسيغ أمها حركاته ! . . . وتؤمن على كلماته بحماسة ! . . . طبعاً . . . طمعاً . . . فغاية مناها أن تستر ابنتها فى كنف رجل ثرى يضمن لها المأكل والمشرب . . . أما ما عدا ذلك فهو فى عرفها بطر ودلع بنات !

وأحست برغبة ملحة لكوب شاى ، وسرعان ما تمثل لها عبد المقصود وقد انتهى من طعامه ، وتراخى فى جلسته على الأريكة يدخن سيجارة ويقول : اعملوا لنا كباية شاى . . . نحبس على الأكلة التمام . . . .

لقد عافت نفسها الشاى ، بعد أن كان مشروبها الوحيد تحتسيه طول يومها . . . كان ريقها يتحلب للونه الأحمر العقيقى . . . لم تكن تطيقه مخلوطاً بشىء ... لا لبن ولا نعناع ولا ليمون ... أما مع عبد المقصود فقد أصبحت لا تطيق شربه إلا بعد أن تعصر عليه نصف ليمونة . فالليمون يساعدها على مقاومة « الغثيان » الذى تحس به يجيش فى أحشائها . . .

عجباً لأمها لا تسألها عن سر هذا الليمون ، وقد درجت أن تراها طفولتها تتغزل فى صفاء لونه وطعمه . . .

السيدة الطيبة الكسيرة الجناح ، تفهم . وتدرى . ولهذا تتجاهل وتلزم الصمت ، ولا تنبس بكلمة حتى لا تنكأ الجرح الذى تعلم كم هو غائر فى وجدانها ، وكم هو حافل برصيد متزايد من الصديد الكامن .

أمع مثل هذا المخلوق يكتب عليها أن تقضى بقية عمرها ، هى التى كانت ترى فى الزواج شركة مناصفة بين اثنين متقاربين فى السن ، متقاربين فى الثقافة ، يبنيان حياتهما معاً خطوة خطوة ، وما عدا ذلك فهو فى نظرها عملية بيع وامتلاك . . . ومع هذا فقد كان الزواج آخر ماتفكر فيه ... شىء واحد كان يسيطر على عقلها ، مستقبلها العلمى .

وانتزعها صوت أمها من هوة تعاستها :

ـــ لا عليك . سأعيد عليه الكرة لعل الله يهديه وتستمرين فى تعليمك وإذا أصر . . . ماذا أقول ؟ . . . الأمر لله : هو يتولانا برحمته . ما دامت هذه إرادتك .

وطأطأت الأم رأسها وتنهدت من قلب صديع وأردفت :

ـــ لن ينسانا الله ! . . . هونى عليك ، قومى انفضى هذا الحزن

عنك . فأنا لا أطيق أن أراك على هذا الحال .

وشعرت بوخزات ألم فى قلبها . . . وهي ترى أمها مطرقة ، حريصة على ألا تتلاقى نظراتهما . . .

يجب أن يضحى أحد أفراد هذه العائلة المنكودة بنفسه لينقذ الباقين . ولن تغفر لنفسها أبداً أن تكون السبب فى نكبة تلحق بهم ... ستقضى حياتها تعسة . . . هذا صحيح . ولكن . . . هؤلاء ؟ . . .

أحداً ! . . . من يكون هذا الأحد ؟ . . .

ومرة أخرى اعترضت صدرها غصة ... ونظرت إلى أمها فوجدتها كانت تمعن النظر فيها ، ولكنها ما إن ثبتت نظراتها فى عينيها حتى أسرعت تغضهما .

وشعرت أن قلبها وصل إلى قرار ، وبحركة بطيئة ، ولكنها ثابتة . خلعت العصابة عن رأسها ، ورمتها بعيداً ، وأنزلت رجليها من فوق الفراش ونظرت إلى أمها طويلا . . .

وكأنما أحست أمها — بطريقة ما — بشيء جديد يدور فى نفس ابنتها ، فرفعت إليها عينيها وقابلت نظراتها بثبات صامت . وقالت عديلة بصوت متهدج : سأتزوجه . . .

وخيل إليها — من سحابة غشيت عينيها — أن وجه أمها كسته فرحة كسيرة . وأغمضت عديلة عينيها وقد أحست بهوة تفغر فاها لتبتلعها . واستنجدت بكل ما لديها من روح السخرية حتى لا تفقد شجاعتها ، وقالت وشبح ابتسامة يتراقص على زاوية فمها المرور : اعملوا لنا شاى ...

وبعد لحظة أردفت وقد زاد تراقص شبح الابتسامة على زاوية الفم . تراقصاً امتدت بجذوره إلى أحشائها : . . . وعليه الليمونة كاملة !

سؤال صعب

ارتفعت أصوات ضحكات صاخبة تجاوبت أصداؤها في أركان الشارع الهادئ . ومرقت سيارة الأتوبيس كالسهم بعد أن لفظت آخر شرذمة من ركابها . . . واتخذ الصحاب طريقهم وهم يتبادلون النكات والدعابات إلى سهرة لا يدرى إلا الله إلام تمتد . . .

وانفصل أحمد عن الشلة المرحة وانعرج إلى شارع جانبي وأصواتهم تلاحقه بكل ما فيها من مرح وانطلاق . ولم يلبث أن هدأ الكون من حوله ولفه الليل الساجي بغلالة من الصمت . . .

وأحس وحشة لمنظر البيوت الساكنة تتناثر من حوله كأنها شواهد تضم رفاتاً أقلقها صوت دقات حذائه الرتيب على أرض الشارع المرصوف فتململت في رقدتها . . . ومد يده إلى جيبه ليخرج صندوق سجائره كالعادة ، فإذا بها ترتد خاوية . وفجأة قفز إلى ذاكرته العهد الذى قطعه لزوجته منذ خمسة عشر يوماً أن ينقطع عن التدخين . . .

وتجمع سخطه كله . وكاد ينشق غيظاً ، فلم يشعر في حياته أنه بحاجة إلى سيجارة كحاجته في هذه اللحظة . . . وراح يلعن الزواج ، واليوم الذى كبل نفسه به . وحكم عليه بتغيير عاداته التى ألفها وعاش عليها أكثر من خمسة عشر عاماً . . .

وشق سكون الليل صوت المذيع ينهى موجز أنباء صوت العرب ، فالتفت مذعوراً فإذا عم محروس العجوز صاحب كشك السجائر على ناصية الشارع قد غلبه النوم فراح يهوم على كرسيه الخشب الصغير بجانب الراديو . . . وقادته قدماه إليه ، وقد علقت عيناه بعلب السجائر المتراصة التى لم يكن يخلو منها جيبه يوماً . . . وأحس بوحشة إليها كالتى

يستشعرها الإنسان لبعد حبيبه . وخفق قلبه ، وجف ريقه . . .
ماذا لو اشترى صندوقاً صغيراً ، أو حتى سيجارتين ؟ ! .
وجد فى السير يدفعه الشوق، وقبل أن يصل دقت ساعة الراديو تعلن الثانية بعد منتصف الليل .
وارتدت خطواته ، وعاد أدراجه . . .
آه ! انتهت إذاعة صوت العرب ليواجه إذاعة من نوع آخر ، ولن يزيد المسألة تعقيداً برائحة السجائر التى لا بد أن تكتشفها بمجرد دخوله .
وكأنما استيقظ من حلم ليواجه الواقع ، ذلك الواقع الذى يتمثل فى السيدة حرمه ، التى لا شك أنها ساهرة الآن فى انتظاره ، كى تؤنبه بكلماتها ، أو بنظراتها ، أو بصمتها وهو أضعف الإيمان . . .
أربعة أشهر مرت على زواجه ، صحيح أنها لم تكن عسلا كلها كما كان يتصورها قبل الزواج . بل تخللتها نوبات من الغضب والسخط والندم . . . ولكن ثريا بنت حلال قد تسوق الدلال فى بعض الأحيان ، بيد أنها سرعان ما ترضى وتسلس القياد بكلمة حلوة ، أو مداعبة لطيفة .. ثم ماذا يصنع هو؟ ! . ما ذنبه وقد تأصلت فيه عاداته ؟ ! لقد تزوج ليسعد لا ليشقى بتقييد نفسه . والتضييق عليها ؟ ! تزوج لتكميل راحته ، لا لهدمها أو التنقص منها ! . . . صحيح أنه اتفق مع ثريا على يومين فى الأسبوع يسهر فيهما خارج البيت ، ولكن عمله فى الشركة مرهق صباحاً ومساء ، وهو لا يستطيع أن يخرج من المكتب فى الثامنة مساء ليعود تواً إلى البيت ، فكأنه خرج من زنزانة إلى زنزانة ! فإذا به يطاوع عادته ويمضى مع الشلة متعللا بأنه لن يمكث معهم إلا ساعة أو بعض ساعة ريثما يروح عن نفسه عناء العمل الطويل الشاق ، ولكن « المجال » يجرفه فلا يعود إلا كما عاد الليلة فى نيالثاة صباحاً . . .

وتطورت المسألة تطوراً طبيعياً دون أن يحس بنفسه حينما أصبح اليومان المتفق عليهما للسهر مع الرفاق ثلاثة ، ثم أربعة ، ثم خمسة ثم ستة . . . ولكن ما ذنبه ؟ أهو ضعيف أمام عاداته أو تراها تريد أن تجعله يضيق بحياته معها تحت اسم عش الزوجية السعيد ؟ ! .

وتوقف عن المسير وهو يردد لنفسه :

عش الزوجية السعيد ! . كلمات جوفاء يطلقونها ليوقعوا بالرجل ، الفريسة المسكينة داخل قضبان السجن الأزلى ، سجن الزواج ! . .

وتمثلت له « ثريا » زوجته بقوامها الجميل ، وجسمها البض وبشرتها الناعمة الملساء ، ودلالها الذى يأسر القلوب . . . فشعر بالذنب ، وانتابه ندم لهذا التجنى السافر رغم ما تتيحه له من سعادة ودفء وجو لا يتوفر إلا فى كنف الزواج . . .

ولم يجدها ساهرة إلى جانب الراديو كما كان يتوقع . كانت راقدة فى فراشها فى قميص أبيض بديع كشف عن ذراعيها وصدرها البض . . . ولم يجسر على الاقتراب منها . فقد صدمته نظراتها التى تطفح بعتاب هادئ . وردت تحيته بصوت لا يكاد يسمع . . .

وحاول أن يتلهى بخلع ملابسه ليجنب نفسه مشقة العتاب . . . وأحس بجوع قاتل فنهض إلى المائدة حيث تركت له ثريا عشاءه ، فوضع الجبن والزيتون وقطعة اللحم المشوى والفاكهة على صينية وجاء بها إلى السرير ليأكل كما كان يفعل فى أعقاب السهرة وهو أعزب . . . فهو لا يطيق أن يغير عاداته القديمة ، ويجب أن يشعر أنه لم يفقدها ، بل احتفظ بها وأضاف إليها شيئاً جديداً : هو متعة هذه الزوجة التى تعنى بالبيت وتدفئ معيشته بحرارة شبابها . . .

ولم تر ثريا جدوى فى إثارة الجدل حول هذا الموضوع كما كان يحدث معظم الليالى . . . فاكتفت بالتنهد وقالت فى استسلام :

— ترى . . . ماذا كان يمسى حال البيت لو لم أكن زوجة مثالية ، وكنت — لا قدر الله — فوضوية ، أتشبث بعادات العزوبة وامتيازاتها فى عدم تحمل مسئوليات الزواج ، وما تتطلبه المعيشة الزوجية من تخل عن عادات العزوبة ؟ . . .

ولم يرد عليها . . . لأنه لم يعرف بالضبط بماذا يجيب . . .

وأدارت له ظهرها وأغمضت عينيها ، وحاولت أن تستسلم للنعاس . . فحمد ربه مرتين : مرة لأن عصافير بطنه سكنت بعد أن التهم الطعام . ومرة أخرى على أن زوجته العزيزة اكتفت بهذا السؤال الفلسفى الرصين . . . ثم رقد ، ولم يلبث أن راح فى سبات عميق إثر تعب اليوم وإجهاده فى السهر . . .

وشعر بيد تهزه ، وصوت زوجته يصيح فى أذنه :

— قم يا أحمد ، قم أعد إفطارك ، لقد تأخر بك الوقت ، ولست بحالة طيبة حتى أقوم لأعد لك القهوة ، فبى رغبة للنوم . . . ولا تنس يا عزيزى أن تأخذ الباب وراءك . . . ولا تحدث ضجة لأنى أريد أن أستمتع بالنوم إلى الضحى كما كنت أفعل وأنا فى بيت أبى . . .

ولم يشأ أن يستفتح اليوم بخناقة ، فصدع بالأمر ، وتحرك على أطراف أصابعه إلى أن أتم اللبس ، والأكل ، وخرج دون أن يشرب القهوة وهو يكاد ينشق غيظاً ، وقد عول على أن يعاقبها بعدم الحضور إلى البيت لتناول الغداء ظهراً ، وبغير أن يخطرها بالتليفون كى يعذبها بانتظاره عبثاً . . .

وقضى وقتاً عصيباً ليمنع نفسه من العودة ، ولكن ما إن حان موعد الانصراف حتى لان قلبه وأسرع إلى البيت .

ودخل على أطراف أصابعه كى يفاجئها بقبلة حارة تنسى معها كل ما حدث بالأمس ، فهو يعرفها ، ويعرف قلبها الطيب الذى لا يمكن

أن يحتبس الغضب أكثر من دقائق . . . ولكنه وجد البيت خاوياً ، ووجد المطبخ بارداً لا رائحة فيه لطعام ، ووجد المخدع منكوشاً وقميصه القذر الذى خلعه فى الصباح مكوراً على الأرض مكانه ! . . . وراح يذرع حجرات البيت فى قلق فلمحت عينه ورقة على المائدة ، فالتقطها ليقرأ فيها هذه السطور .

أحمد . لقد خرجت للترفيه عن نفسى فلا تنتظرنى للغداء . . . تصرف يا عزيزى كما كنت تفعل أثناء العزوبة . . . ولن تعدم مكاناً تأكل فيه . . .

ثريا

ووضع الورقة فى جيبه وهو لا يكاد يصدق عينيه وانصرف يبحث عن مطعم يأكل فيه ، وقد بيت لها أمراً . . . وعاد فى المساء بعد خروجه من المكتب مباشرة . عاد ليجدها واقفة وسط بركة من الماء . فقد نسى صنبور الماء مفتوحاً فى الحمام سهواً بعد أن غسل وجهه ظهراً ، ففاض الماء لأن البالوعة مسدودة . . . ولما كان البيت خالياً فقد غرقت الشقة ، وتلفت السجاجيد . . . وكانت ثريا تفضى إليه بهذه التفاصيل بهدوء قاتل ، فصاح بها :

— ولماذا أنت واقفة هكذا ؟ لماذا لا تتحركين لتجففى هذا الطوفان ؟ .

فأجابته ببرود قاتل :

— إننى تعبة من الفسحة طوال النهار فى حديقة الحيوانات . . . ستجد المكنسة وراء باب الحمام ، وتستطيع أن تقوم أنت بالعملية دون إرهاق . . .

ودفعته برفق فى كتفه ، فزعق زعقة عظيمة صحا على أثرها من حلمه المزعج ، ليجد ثريا وعلى وجهها أعذب ابتساماتها تقول :

ــ قم يا أحمد الإفطار جاهز .

ولم يجب . بل راح يجيل نظره فيما حوله فى شرود عابس ، فصاحت به وهى تتأمل وجهه :

ــ قم ! ما بال وجهك متغيراً هكذا ؟ ماذا بك ؟

فأجابها وهو يبتلع ريقه ويستعيد هدوءه ويمد إليها ذراعين مشوقتين

ــ لا شيء يا حبيبتى . . . لقد كنت أجيب عن سؤال صعب . . . اللهم اجعله خيراً . . .

من نوع آخر

كانت تجمع ملابسها ودموعها تتساقط محرقة على خديها ، وشهقات مكتومة تندفع إلى حلقها فتقبض عليها بشفتيها المحمومتين فى إصرار عنيد . وصوت كهدير الموج يضرب جوانب رأسها فى طرقات كرجع الصدى . . .

— اخرجى من بيتى يا خائنة . . . يا سارقة . . . يا متشردة . . .

خائنة ! . . . سارقة ! . . . متشردة ! . . .

كلمات لم تسمعها طوال عمرها ، عمرها الذى يربو على التسعة عشر ولا جرؤ إنسان أن يوجه إليها مجرد كلمة لوم . . .

وانهمرت دموعها أكثر غزارة وقد تمثلت والدها المريض متهالكاً ضعيفاً فى أحد أركان سريره الكبير ، وعيناه الكليلتان لا تفارقان وجهها الحزين ، وصوته الواهن يخرج ضعيفاً متقطعاً من بين شفتيه .

— راجية ، يا ابنتى . . . إياك . . . إياك وأصدقاء السوء . . . احرصى ألا يخدعك أحد . . . كونى جادة . . . واعية . . .

ونكس رأسه وتهدل جفناه وخرجت الكلمات من فمه كالحشرجة :

— تباً لى من وغد خسيس . . . ارحمنى يا رب . . .

وانكفأت راجية على وجه أبيها توسعه قبلا ، وتتحسس رأسه الأشيب بيدها ، وتقول فى صوت يقطر حناناً :

— وما ذنبك يا أبى ؟ لقد خدعك المجرمون . . . وقعت فى أيد شريرة لا ترحم . . . لو لم تكن طيب القلب ، صافى السريرة ، لما صدقتهم وضمنتهم بكل ما تملك . . . ولكن صبراً فالله يمهل ولا يهمل . . .

فأجابها فى صوت يائس :

— يمهل ولا يهمل ! سنتان وأنا طريح الفراش والصدمة أودت

بوالدتك . . . وأنت . . . أنت يا بنيتى انظرى كيف وصلت بك الحال . . .

ونكست رأسها استسلاماً . . .

كيف وصلت بها الحال فعلا ؟ ! من كان يظن أن راجية المدللة ابنة العز والجاه ، الطالبة بكلية العلوم تعمل مربية أطفال لتنفق على أختيها ووالدها العليل ، ولتدبر من المبلغ أيضاً ما تستطيع أن تتم به تعليمها ؟ !

وأتاها صوت والدها العليل كسيراً واهناً :

— ولكن . . . ألم تجدى عملا هنا فى القاهرة بدلا من غربتك وبعدك عنا فى الإسكندرية ؟ ألا يوجد من صديقاتك من تبادلك مكانها فى البنك هذه الأربعة الأشهر فقط ؟

لقد كذبت عليه ، كذبت عليه وادعت أنها ستعمل ببنك فى الإسكندرية ، وإلا كانت الصدمة أودت بحياته ، وراحت تطمئنه وهى تحتضنه :

— احمد ربك يا والدى أن وفر لى هذا العمل السهل بأجر مجز . . . وهل كانت رغبتى أن أبتعد عنكم ؟ . لقد حفيت قدماى ولم أجد من يمد لى يد العون ، ثم عشرون جنيهاً ليست بالمبلغ الهين . وسأعود إليكم ومعى مبلغ كبير من المال يمكننى من التفرغ لدروسى ولم يبق سوى عام على تخرجى ، ثم لا تنس يا أبى أننى سأتقاضى مرتباً كبيراً إذا أحرزت التفوق ولن يتسنى لى ذلك إلا إذا أحسست بالاطمئنان المادى من جهتكم ، والاستقرار وحده هو الذى سيوفر لى التفرغ . . .

ونظر إليها والدها فى إعزاز وحب ، ثم قال وهو يربت خدها :

— ليحفظك الله يا بنيتى ، ليرع خطاك ويرزقك بأبناء الحلال فى كل خطوة تخطينها . . .

وتنبهت إلى واقعها ، وترقرقت الدموع فى عينيها :

أبناء الحلال ! . . . آه لو كان والدها يعلم أى عمل هذا الذى تقوم به؟ ولكن ما ذنبها وقد سدت جميع السبل فى وجهها ، ثم إن مربية لثلاثة أطفال فى بيت عريق كهذا البيت الذى التحقت به ، وبهذا المرتب الضخم بالنسبة لحالهم، ليس بالأجر الهين ، صحيح أن العمل صعب ، والأطفال شياطين ، ولكنها مضطرة . . . والمضطر يركب الصعب .

وغمغمت ، نعم يركب الصعب . . . ولكن كيف حدث هذا الذى حدث ؟ ! كيف جرؤت هذه السيدة الكريمة الرفيعة أن تنهال على رأسها بهذه الشتائم المرة ؟ ما الذى رابها فى تصرفاتها ؟ . . . إنها لم ترتكب إثماً . بل كانت مثال المربية الأمينة المطيعة الطيبة ، لقد تناست كبرياءها بمجرد أن قرأت الإعلان ، وأقبلت على عملها بكل همة ونشاط ، يحفزها للتفانى أب مريض وأختان فى مسيس الحاجة للتربية، وسنة طويلة من العمل الشاق فى كليتها لتضمن التفوق . . .

واعترض تفكيرها « صبحى » بوجهه الهادئ ، وابتسامته المشرقة وصوته الأجش العميق :

ــ أنت قدرى يا راجية . . . لقد صممت وانتهى الأمر .

إنها لم تجاره فى تصرفاته . . . لم تفتح له قلبها يوماً ولا أطلعته على سرها الدفين ، لم ترتكب شيئاً يعيبها ، كانت دائماً تصده وترجوه أن يبتعد عن طريقها ، فليست الإنسانة التى تصلح له .

كانت تقول له ذلك لتبعد عن ذهنه شبهة أصلها ، ولكنه كان يجيبها دائماً :

ــ مهما كنت . لن أتخلى عنك ، قولى لى فقط من أين أتيت ؟ وهل أنت وحيدة فى هذه الحياة ، من أهلك ؟ أمن الإسكندرية أنت ؟ قولىلى يا راجية . . . أريد أن أعرف كل شىء عنك ، أريحينى بربك . . .

لماذا لم تصده من أول الأمر ؟ ليتها فعلت ، ليتها لم تطاوع عواطفها ،

وتتناس وضعها فى البيت . . .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى خلا لهما الجو فيها ، فمنذ التحقت بالعمل وهى تراه بين حين وآخر فى زيارة أخته ربة البيت ، ومنذ لاحظت نظراته المريبة إليها ، وهى تتحاشاه خوفاً من أن يعرف سرها ، وكثرت زياراته ، ولا تدرى هل كانت الصدف أو أنه تعمد أن يحضر حينما تكون أخته فى الخارج . . . وبذلك تسنى لها أن تجاذبه الحديث ، ويتناقشا فى أمور كثيرة . وكانت تشعر باحترامه وتقديره لها .

ألعله تنبسم من حديثها أنها غير من هن فى طبقتها ؟

كلا ! لو كان هذا صحيحاً لما حاول أن يقبلها عدة مرات . . . نعم عدة مرات . . . وآخرها أمس . . . وكان الأحرى به أن يحترمها ، ولكنه لم يأبه لصدها وتوسلاتها ، وهجم عليها كالوحش الكاسر . . .

رباه ! . . .

وتهالكت على المقعد وجسمها كله يرتجف كأنما أصيبت بطعنة خنجر فى أحشائها . . .

لماذا فعل ذلك ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ !

ربما تستطيع أن تقنع نفسها أنه فعل ذلك عن رغبة تسلطت عليه لكثرة صدها له ، ولكن الذى لا تستطيع فهمه إطلاقاً هو : كيف سمحت له نفسه أن يخبر أخته بما حدث كله وهو المعتدى الأثيم ؟ . ألعله أراد الانتقام منها ؟ وحتى . . . أخته لم تقبل منها دفاعاً أو حتى تفسيراً لموقفها ! ورمتها بأقذع الألفاظ ، وطردتها شر طردة ! . . .

لقد كانت تنتظر بفارغ صبر ، نهاية هذا الشهر لتعود من حيث أتت دون أن يقف إنسان على سرها ، وقد عولت أن تسقط هذه الفترة تماماً من حياتها ، ولكنها لم تمهلها . . .

وجمعت حوائجها ، ووضعت ما ادخرته من نقود خلال الثلاثة

الأشهر فى حقيبة يدها مع أوراقها الخاصة وخطابات والدها التى كانت تصلها على شباك البريد، وكل ما تخشى ضياعه ، ثم اقتطعت بعض النقود لتذكرة السفر وبعض المصاريف النثرية ، ووضعتها فى جيب سترتها حتى لا تعرض مدخراتها للنشالين ، وتسربت من الباب الخلفى كى تتجنب أى موقف حرج .

وفى القطار جلست تستعيد أيام شهورها الثلاثة لحظة بلحظة وكلما اعترض فكرها خيال صبحى ، أحست بحنين إليه يشوبه عتاب حزين لا موضع فيه لنقمة ، ثم لا تلبث أن تلوم نفسها وتزجرها .

وأفاقت من رحلتها الطويلة مع نفسها على صوت الحمالين فى محطة القاهرة والناس من حولها يخرجون سراعاً وإذا هى وحيدة فى الديوان كله . فقامت على عجل تلملم متاعها القليل . . .

وصعقت ، وأصابها دوار ، وأحست أن قدميها تخذلانها .

أين الحقيبة ؟ . أين حقيبة يدها ؟ .

وراحت تفتش الأريكة ، وتحتها ، وفوق رف الأمتعة . . .

وأصابها خبال . . . لا يمكن أن تكون وضعتها فوق الرف ، لقد كانت بجوارها طوال الوقت ! فى حجرها ! فى حضنها ! من جرؤ أن يخطفها منها ؟ !

وحاولت أن تتذكر أشكال من كانوا معها ، ولكنها لم تستطع أن تتبين وجهاً واحداً . . .

لم تكن تحس بوجود أحد معها . . . عاشت هذه الساعات فى جو مغلق ، جو قاتم ، لا مكان فيه لغير أحزانها .

وخرجت كالمصعوقة إلى ناظر المحطة ، وكان رجلا جليلا ودوداً ، طلب منها أوصاف الحقيبة وكل شىء فيها ، وكتب مذكرة ووعدها خيراً وطلب منها أن تمر عليه فى اليوم الثانى .

وانصرفت وهى على يقين أنها لن تظفر بها. كانت تمشى كأنها تسبح فى ضباب . وكل ما حولها خيالات . . . لقد فقدت كل شىء ، حتى المبلغ الذى ستستتر به أيامها حتى تتخرج ، تبخر . . . ذهب . . . يا لتعسها وشقاء مآلها . . .

وكان عليها أن تتجلد أمام والدها الذى استقبلها بفرحة دهشة ولم تجعله أو أختيها يفطنون إلى كربتها ووجيعتها .

ولم يزر الكرى جفنيها طوال الليل ، راحت تردد فى أنين :

ــ لعل الله يكرمها ، إنه ليس بظالم ، إنها لم ترتكب إثماً . . .

وغفت عن وهن وقد بزغت أولى تباشير الصباح ، ثم تنبهت فجأة على صوت طرقات كأنها آتية من أسفل . وقامت مفزوعة والكرى ملء جفنيها فإذا الطرقات على الباب الخارجى . وأسرعت تفتحه على عجل حتى لا يوقظ الطرق والدها المريض وأختيها النائمتين .

وفى فرجته رأته، رأت صبحى بقامته، بلحمه ودمه، يمد إليها يده بالحقيبة ، فخانتها قدماها ، وأحست أنها تهوى ، ولكن ذراعين قويتين احتضنتاها ورفعتاها عن الأرض ، ولم تدر بنفسها .

وأفاقت فوجدته بجانب فراشها :

ــ لقد نسيت الحقيبة فى البيت يا راجية ، اعذرينى أننى فتحتها لأعرف عنوانك، كان لا بد لى أن آتى حالا لأحضرها لك . لقد ركبت قطار منتصف الليل الذى وصل فى الخامسة صباحاً .

وقالت فى هزال :

ــ شكراً . . .

ولم يدعها تتم ، وضع يده على فمها وبيده الأخرى رفع يدها فى إعزاز وجعل يقبلها بشغف وحنان وإكبار وقال :

ــ راجية . لقد أحببتك منذ وقع نظرى عليك ، أحببتك قبل أن

أعرف تضحياتك . . . قبل أن أعرف نبلك .

ونظرت إليه متسائلة فى صمت .

— قرأت كل شيء . قرأت كل أوراقك ، لم أستطع لأن أمنع نفسى . وبعد أول ورقة وجدت نفسى مدفوعاً بقراءة المزيد ... وكل ورقة تكشف لى عن جانب جديد . جميل ... عزيز على نفسى يجعلنى أشعر بتواضع شديد وأنا أسألك : أترضينى شريكاً لحياتك ؟

وكانت دقات قلبها تتلاحق بعنف فلم تدر بماذا تجيبه وأحست بسخونة على خديها وهى تسأله :

— ولكن لماذا ؟ . . .

فأدرك أنها تسأل عن أخته . لماذا قال لها :

— كان لا بد أن أخبرها . . . كنت غراً . هيأت لى عاطفتى أنى سأجد الجميع يقفون فى جانبى ، وأولهم هى . . . ولكن للأسف .

وضغطت على يده ، ولم تستطع أن تحبس دموعها . . . ولكنها كانت دموعاً من نوع آخر .

الطريق المرسوم

كان صوت جهاز راديو بعيد ، عبر الشارع يطن فى أذنيها ، وهى تسمع سؤاله . . . وتتلقى تحديق نظراته القوية ، كأنه يريد أن يصب عليها كل ما لديه من تيار مغناطيسى .

وقاومت اضطرابها وراح عقلها يصب اللعنات على أولئك المخترعين المغفلين الذين أضاعوا وقتهم فى ابتكار أجهزة بهلوانية تافهة ، ولم يفكروا فى اختراع نافع جداً ، ولازم جداً ، إنه الاختراع الوحيد الذى تشعر بلزومه لها فى هذه الساعة بالذات ، وكل مسكينة فى موقفها من بنات حواء. ولا بد أن هناك مائة مليون مسكينة مثلها فى مثل موقفها هذا من نماذج لأبناء آدم الجبارين يشبهون هذا الماثل أمامها يصب عليها كل نيران نظراته المضطرمة العارمة ، التى تثير فى أعماق كيانها الضعيف أعتى البراكين . . .

لماذا لم يشغل هؤلاء العباقرة أنفسهم باختراع أهم ألف مليون مرة من الراديو والتليفزيون ؟ اختراع « ترانزستور » بطارية صغيرة جداً يضيء نوراً أخضر أو أحمر أو أصفر كأنوار علامات المرور لتعرف المرأة هل المرور ممكن ، أو خطر ، أو بين بين . جهاز صغير كهذا يكشف عما فى قلب آدم وعقله نحو المسكينة التى يصب عليها سحره الطاغى . . . فتعرف هل هو صادق أو يغرر بها . . .

وتذكرت شيئاً آخر ففزعت ... تذكرت أن هذا الجهاز «الترانزستور» لو أتيح لكل الناس ، فماذا يكون موقفها حين يسلط زوجها هذا الجهاز على عقلها . . .

كلا ! يجب أن يكون هذا الاختراع الثمين وقفاً وحكراً عليها هى فقط . . . آه يا رب لو استطاعت فقط أن تعرف ! !

وأعاد عليها سؤاله ، وهو يصب فيها نيران نظراته فيسحق عقلها وإرادتها سحقاً ، وهي تتماسك :

— لا أدرى لماذا تصرين دائماً على تعذيبي ؟ . .

وأخذت عيناها تتفحصه فى توجس . فرغم صوته الحزين وملامح وجهه المتقلصة ،لم تستطع أن تكون فكرة واضحة عما يتكتمه فى دخيلة نفسه : هل هو صادق حتماً ، أو يمارى ويلعب بها ؟ . . أترى حقاً يحبها أم يريد أن يستشف طوايا نفسها؟. إن نفسها جياشة بالأحاسيس ... تحسها كالبركان على وشك الانفجار . . . لا تدرى فى أى لحظة سيفلت منها زمامها . . . ربما الآن . . . فوراً . . . أو بعد دقيقة ... أو ربما تستطيع التحكم ويمر الموقف بسلام وتتغلب على ضعفها . . . الله أعلم ... أما إذا تغلب هو وصار سيد الموقف . . . رباه ! . إن نفسها تفلت منها فتعربد وترتكب من الأفعال ما لا تجسر أن تواجه به هذه النفس إذا عادت إلى حالتها الطبيعية ! . . .

حالتها الطبيعية ؟ !

إذن هى لا ترتكب هذه الأعمال وهى فى وعيها !

أحقاً إن داخل النفس البشرية شخصيتان متعارضتان كامنتان ، هما : الخير والشر ؟ أتكون الشخصية الشريرة هى التى تستحوذ عليها وتشل تفكيرها الطبيعى وتجعل بذور الشر الكامنة تتشعب كالأخطبوط تمتص كل ما حولها وتعيث فساداً دون أى رادع من الشخصية الأخرى المستنيمة لها ؟ !

إن سلطانه أقوى الآن ، فى هذه اللحظة بالذات ، من أن يدعها تفكر ، فقد أحست بجيشان عواطفها تمور وتملأ جسدها ثم يزحف إلى لسانها اسمه الحبيب فإذا به يقفز إلى شفتيها فتهمس به فى نشوة . . . فيمد لها يده المرتجفة بعود ثقاب ليشعل لها سيجارة ، فتتلامس الأيدى وتتلاقى

العيون فى نظرة صامتة جياشة تزلزل جسمها كله . . .

* * *

منذ عام عرفته . . . كان صديقاً لزوجها ، أحضره ذات يوم إلى البيت لتناول طعام الغداء ، وقدمه إليها وهو متهلل بعودة صديق طفولته من الخارج. وكانت جلسة ممتعة تخللتها ذكريات الطفولة العذبة وأطوار الشباب وما مر بهما ، وقص عاطف على صديقه زوجها ما مر به فى حياته ، ومأساة حبه ، وهربه إلى الخارج بقلبه الجريح ، وعزوفه عن المرأة والزواج بعد ذلك ، وحاول زوجها أن يثنيه عن عزمه ، ضارباً بها وبحنانها وحبها وإخلاصها أكبر مثل يدحض فكرته، وإذا كانت امرأة قد خانت عهوده ، فليس معنى ذلك أن كل النساء سواء . . .

وأغضى عاطف ولم يحر جواباً . ولكن سحابة حزن رانت على الموقف ، فأسرع زوجها يدير دفة الحديث إلى ظروف العمل والطقس ودخلت ابنتهما فى هذه اللحظة من نزهتها الصباحية مع دادتها ، وراحت تتقافز ، وساد الجو مرح جميل بدخول الطفلة اللطيفة . . .

أما هى فلم يستطع جو الموقف أن ينتزع من نفسها إحساسها بالرثاء لهذا الشباب الفارع الوسيم ، وراحت تختلس إليه النظر وهو يداعب طفلتها فى حنان وإقبال شديدين . . .

وتعددت زيارات عاطف للبيت ، وأصبح يدخل ويخرج فى أى ساعة يريدها بعد ما أعطاه الزوج مطلق الحرية والثقة مساهمة منه فى إبعاد روح الكآبة عن صديقه العزيز . . . وإشعاره بجو العائلة الدافئ ليعيد إليه ثقته بأن هناك نساء فضليات . . .

ولم تكن سهير بأقل رغبة من زوجها فى إدخال السرور على قلب عاطف . . . ولما كانت متزوجة منذ ست سنوات ، ولم تنجب سوى هذه الطفلة ، لأن مانعاً ألم بها بعد ولادتها ، قرر الأطباء أنه سيزول

بمرور الزمن ، ولكن السنوات مرت ، وهى فى شوق ملح للأطفال . مما جعل الفراغ يلون حياتها ، ولم يفلح حب زوجها وحدبه فى ملء حياتها، لأن أعماله الكثيرة كانت تعوقه عن مرافقتها إلى أمكنة اللهو والنزهات ، فانطوت على نفسها تجتر آلامها فى صمت حتى لا تزعج زوجها وتسبب له خيبة أمل فى العش الهنىء الذى بناه وزوده بكل مريح وجديد ليسعدها ويدخل على قلبها السرور . . .

وبمرور الأيام أحست سهير أن وجود عاطف معها قد فجر فيها ينابيع شبابها بعد ركود . . . وفى كل مرة يجلس إليها تكتشف فيه أشياء افتقدتها فى زوجها . . . وارتاحت إليه وأصبحت تحس بوحشة لغيابه ، وشعر ببوادر استلطافها له فراح يتقرب منها ويرى شباكه حولها ! . .

وذات يوم ، وقد انفردا فى البيت انتظاراً لعودة زوجها من عمله ، كان هذا الموقف الذى قلب حياتها رأساً على عقب ، فقد راح يلقى فى أذنيها كلمات الحب والهيام . وأحست أن الموقف سيفلت من يدها وقد تملكتها نشوة كادت تدفع بها بين أحضانه ونسيت كل شىء إلا صوت نداء يصرخ فى أعماقها . . . وفى هذه اللحظة سمع صوت أقدام زوجها فوق الدرج ، فعادت إليها حواسها المستنيمة ، وفى لمح البصر تغلبت على عواطفها وأخذت سمتها الطبيعى . . .

* * *

لماذا تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك اليوم ؟ لا تدرى ، ولا تدرى أيضاً إذا أتيحت لها مثل هذه الفرصة هل كانت تستعيد الذى فعلت أو تحجم عنه . إنها تستسلم للحظتها ولا تفكر فيما يكون بعد ذلك . وهذا — للأسف — عيبها الذى فشلت فى التغلب عليه مهما قاومت ! . وكان زوجها يعلم فيها هذا الضعف لذا حرص أن يجنبها الوقوع فيه دون أن يفتئت على حريتها حتى لا يقوى فيها هذه الرغبة وهو يعلم أن كل ممنوع مرغوب . . .

ولم يغب عنه الاستلطاف الذى بينها وبين صديقه ، وخوفاً من أن تحدث كارثة أحس ببوادرها فى عينى زوجته ، ولم يكن يخفى عليه ما تدبره — مهما فعلت — إذا به يترك كبرياءه جانباً ، ويعاتبها عتاباً قاسياً لحركات بدرت منها ومن عاطف — لم تخف عن عينيه — وطلب منها فى حزم ، ولكن فى رفق ، أن تتحكم فى عواطفها ، ولا تندفع وراء نزواتها ، وسيقطع هو علاقته نهائياً بهذا الذى كان يعتبره يوماً أعز أصدقائه . . .

وشعرت بكلمات زوجها كطعنة نصل فى أحشائها ، خصوصاً وهى تقسم له أنه لا يوجد بينها وبينه أى شىء تلام عليه كانت تعلم أنها تكذب وأن ثمرة خطيئتها تتلوى فى أحشائها تنهشها متلذذة بامتصاص دمائها ، وأن الأمر قد خرج نهائياً من يدها ، ولم يبق غير أيام لتفاجأ بجريمتها ماثلة أمام عينيها ! . . .

نعم . إنها قطعت كل صلة لها به بعد هذا الحادث ولكن شعوراً موجعاً كئيباً لازمها لعظم الذنب الذى ارتكبته فى حق نفسها وزوجها ، وودت لو تطعن الجنين وترديه ميتاً قبل أن يخرج إلى الوجود ، وتدفن معه عارها وسرها الذى سيصبح بعد ولادته علماً على رءوس الأشهاد ! . . .

شيئاً واحداً كان يريح أفكارها المكتئبة ويومض نوراً من الأمل فى نفسها ويجعلها تتأرجح بين الشك واليقين :

لماذا لا يكون المولود ابن زوجها ؟ . . ألا يمكن أن يكون حملها جاء نتيجة حالتها النفسية وهى تحس أنها محبوبة مشتهاة من رجلين فى آن واحد ؟ . . .

لكن القدر كان يدخر لها فى جعبته عقاباً ظنت أنها تستطيع الإفلات منه ، وإذا المولود صورة طبق الأصل من عاطف . . .

رباه ! أى مصيبة حلت بها ، أى كارثة ستحطم حياتها ! أى عار

سيلحق بأيامها . . . لقد فقدت كل شيء . . . فقدت نفسها أولا ، وستفقد زوجها وبيتها والحياة الناعمة والابنة الجميلة . . . لقد تجسمت لها شناعة الموقف بعد ما انجلت الغاشية ، وأحست أنها تسقط من شاهق إلى الحضيض حيث الخزى والعار والشنار . . .

وكرهت الطفل ، كرهته من كل قلبها ! . . . كانت ترتعد فى جزع كلما قدموه إليها لترضعه ، فتحسه ثعباناً ينهش ثديها ! . . وتود لو تصرخ من أعماقها أن يبعدوه عنها ، والناس يدخلون إليها مهنئين بعد ما انقطع الأمل فى إنجابها مرة ثانية ! . . .

إنها تحاول أن تتماسك وتقبل عليه كيلا يفتضح أمرها ، رغم أن الأمومة غاضت من قلبها وكأنما لا تربطها بهذا الوليد أى عاطفة ، ففيه يتجسم عارها ، وبوجوده يظل كالسيف المسلط على عنقها . . .

كانت ترتعد وتتيبس أطرافها كلما رأت زوجها يلاطفه ويقبله ويتفحصه بعينيه ، فهو أول من يدرك الشبه الذى بينه وبين عاطف ، بعد الشك الذى أصابه من علاقتهما . . .

ترى هل يفاجئها يوماً بهذا الاتهام ؟ لا تظن . . . فزوجها عاقل حليم . ولكنها لم تجربه فى مثل هذا الموقف . . .

ونما الطفل . جميلا ذكياً لطيفاً . . . يتدفق صحة ، ومع نموه كان ينمو هلعها ، ومع كل حركة والتفاتة منه كان رعبها يتضخم . . . فنظرات عينيه وتكوين جسمه ، صورة لا تخطئها العين لشريكها فى الجريمة . . .

ألم يلحظ ذلك زوجها ؟ !

ربما نعم . وربما أيضاً لا ، فلم تظهر عليه أى بادرة تنم على شكه . . ولم يفاتحها فى أمر عاطف منذ ذلك اليوم . يوم العتاب . . .

كان صوت ضميرها يؤرقها ! . . .

كان لا يتركها لحظة هادئة هذا الضمير . كان عذابه أشد من

عذاب الجحيم . . .

وكلما حاولت أن تختلق لنفسها عذراً ، وكلما حاولت أن تنفى بنوة الطفل للآخر... وجدت دليلا يؤكد عدم انتمائه للزوج . فينهار كل أمل للصلح مع نفسها . . .

وساءت صحتها ، وانتابتها الهواجس ، وصارت تلازمها فى ليلها وأثناء النهار ، وقررت فى النهاية أن تهمل الطفل حتى تسوء صحته ويموت . . .

لكنها لم تستطع . كان قلبها ينزف وهى تراه يمد لها يداً صغيرة بضة متلهفه إلى صدرها . . فتقبل عليه تلقمه ثديها ودموعها تنهار غزيرة فوق الوجه الملائكى ، وتذوب كراهتها له ويحل محلها إشفاق مرير .

وثارت كوامن الأثرة فى نفسها بعد عذاب أوشك أن يصل بها إلى الجنون . وراحت تجادل نفسها :

كيف يمكن أن تستسلم لهذه الأفكار المميتة ؟ . كيف ترضى بهذا العذاب الذى يضنيها ويحيل حياتها إلى شقاء ؟ . أهى المرأة الوحيدة التى زلت فى حياتها ؟ أهى الوحيدة التى استسلمت فى ساعة ضعف ؟ ! . كم من امرأة ارتكبت أضعاف أضعاف مافعلته ويعشن هادئات ناعمات يتمتعن بحب أزواجهن وثقتهم ! . لماذا تترك نفسها عرضة للانهيار وقد انقطعت عن هذا الرجل منذ اليوم الذى حلفت لزوجها ألا تراه ، وعاشت عيشة الفضيلة والإخلاص ؟ . لماذا لماذا ؟ !

ويجيبها صوت من أعماقها هازئاً :

إذا سقطت المرأة مرة واحدة فى حياتها لا يمكنها أن تعيش عيشة الفضيلة بعد ذلك أبداً . . . لا تخدعى نفسك . . .

هراء . لقد سقطت وتابت ، وأصبحت منذ ذلك اليوم امرأة أخرى ، حتى إنها تنظر إلى ما بدر منها وتتعجب كأن إنسانة غيرها هى التى فعلته.. إنسانة لا تمت لها بصلة . . .

وفجأة مرض الطفل ، أصيب بالتهاب رئوى حاد ، وكتب له الطبيب عديداً من الأدوية . بعضها كل ثلاث ساعات ، والبعض الآخر كل ست ساعات ، وشدد فى المحافظة على المواعيد ، نهاراً وليلا . فالخطر كامن فى التهاون أو الإهمال .

وبدأت فى تنفيذ التعليمات بدقة . . . ونسيت أحقادها كلها ، ومر النهار وهى على حال من القلق والتوجس والانفعال ، وهى تستمع لحشرجة أنفاس الطفل تتردد فى أنحاء الحجرة بينما أنينه يأتيها خافتاً ، وقد التهبت وجنتاه بحمرة قانية ، وأسبل جفنيه فى استسلام ضعيف . . .

وزحفت جيوش الظلام تطبق على الحجرة الصغيرة ، والطفل المستسلم والأم الساهرة بجانبه ، وانتشر السكون فى البيت كله . فالأب يرقد فى الحجرة المجاورة مع ابنته ، والخادم فى المطبخ . . .

ومر الوقت ثقيلا بطيئاً ، وهى جالسة بجوار الفراش ويدها على خدها ، وعيناها على وجه الطفل فى شرود ساهم .

وسبحت أفكارها بعيداً ، وغامت عيناها فى تيه من الخيالات والأحداث ، واختلطت المرئيات ، وإذا بالطفل يتمثل لها رجلا ، وإذا ما حدث بينها وبين هذا الرجل يتراءى أمامها فى صورة واضحة ليس فيها لبس . . .

وتتململ فى جلستها ، والحوادث تتراءى لها كشريط سينمائى وتنتفض بذور الشر الكامنة فى أعماقها وتصيح بها :

اتركى الطفل دون دواء ، سيموت ميتة طبيعية ، لن يلحق بك أى شك . . . إنها فرصتك الوحيدة . . .

وتصاب برعشة حادة ، وتفتح عينيها مذعورة لتصطدم بتباشير الفجر تأخذ طريقها إلى الحجرة الصغيرة الساكنة من خلف زجاج النافذة . . . وطار عصفور واصطدم بالزجاج المغلق ثم ولى هارباً فى ذعر . وقامت

كالملسوعة تنظر فى ساعتها ثم إلى وليدها ، وشهقت شهقة مروعة .

كان جثة هامدة . . .

مات الصغير قبل أن تسعفه بالدواء ! . .

وانكفأت على الجثة الصغيرة تبكى بحرقة . . . وسياط نار تلسع قلبها ، وانتابها إغماء حينما خلصوه من بين يديها عنوة ليذهبوا به إلى مقره الأخير . . .

وحينما أفاقت أحست كأن شيئاً من البرودة أو الهدوء العلوى يسرى فى أجزاء جسمها جميعاً ، ولم تستطع إلى البكاء سبيلا ، كأنما انسكبت آلامها كلها وأزيح عبء ثقيل عن كاهلها ، وشعرت بخفة وانطلاق ! . . .

* * *

وحار الناس فى أمرها ، لما يرونه فيها من رزانة وعقل وعزوف عن البكاء لايتفق مع تحرقها السنين الطوال إلى طفل ؛ ومن يدرى ربما لاتنجب سواه ، وكانوا يهزون رءوسهم متعجبين لقدرتها على ضبط أعصابها !

ولاتعدم متحذلقاً من المغرمين باستنباط الحكم من الأحداث الجارية ، يهز رأسه هزة العليم وهو يقول :

ــ حقاً ليست العبرة بالصلاة والصوم ، فهذه المرأة لاتصلى ولاتصوم ولكن لا شك أن جذوة الإيمان التى فى سريرتها حية متوقدة ، وإلا لما استطاعت أن تجد بهذه السرعة العزاء والسلوان . . .

وتهز هى رأسها وصوت جهاز راديو بعيد يطن فى أذنيها عبر الشارع . . .

ويمضى كل شىء فى طريقه المرسوم .

دقات لا تكذب

بلغت الباخرة مرسى الثغر وتدافع الركاب نحو سلم النزول إلا «سعفان»، فقد راح يطيل الحديث مع صديقة سفره الشابة اللطيفة «سناء». وهو يتباطأ لعل الله يلهمه ما يفتح أمامه طريقاً لدوام هذه العلاقة القصيرة التي بدأت بتلاقيهما على الباخرة. وفي أعماقه يهمس إحساس غامض أن نهايتها ستكون بلحظة الوداع وافتراق كل منهما عن الآخر بعد المرور من الجمرك.

إن حديثها ولهجتها تدل على أنها من بيئة معرقة في أصول الترف وتقاليد الخاصة من علية القوم. توارث أهلها الترفع والامتياز كابراً عن كابر، فكانت حركاتها وإشاراتها وألفاظها بمقدار. وطريقة معيشتها لها طابع مميز يدل على أصالة العرق وصراحة النسب الكريم في اعتدال واتزان . . .

أما هو فمن سواد الناس كان جده فلاحاً أجيراً، وصار أبوه تاجراً متواضعاً، ثم تقدمت به الحظوظ فأثرى، على استقامة فيه، فأرسل ولده إلى الجامعة، ثم بعثه بعد ذلك إلى بلدان أوربا عيناً له في مصانعها يشترى من نتاجها ما يستزيد به من إدرار الرزق وسعة التجارة، فزادت ثروته وأثرى ثراء مكن ابنه من السفر في الدرجة الأولى والظهور بمظهر فخم . . .

والتقى «سعفان» على ظهر الباخرة في الدرجة الأولى الفاخرة بالآنسة سناء. وكانت في سناء خفة روح وحب للطلاقة، فإذا بها وهي في حالة سأم على الباخرة تتعرف بهذا الشاب المصري ذى الاسم الذى لم تألفه في بيئتها. وللجديد طرافته التي تستهوى النفس في معظم الأحيان . . .

كانت هذه الطرافة هى العامل الأول على امتداد المعرفة بينهما وازدياد الألفة ، فهى تعشق كل تغيير ، وتجد فيه متعة ما بعدها متعة . . .

لذلك لم تكن أقل منه رغبة لحظة الوداع فى امتداد تلك المعرفة ، كما شعرت أنها لا تستطيع أن تقول له وداعاً لا لقاء بعده. كأنما كانت المعرفة ضرورة زالت بزوال دواعيها . ولعل شيئاً آخر دفعها إلى استدامة هذه المعرفة ، هو ظرف هذا الفلاح الذى يأبى إلا أن يذكر الناس بأنه فلاح. فهو يتكلم أحياناً وبلا مناسبة بالجيم والجاف . . . مع أنه يجيد الحديث بلهجة أبناء القاهرة المألوفة . ومع أنه لم يولد ولم ينشأ بالريف . . . ولكنه الحنين إلى الأصل القديم والاعتزاز الكريم به فى مواجهة ذوى الأصول والأحساب . . .

وكذلك اجتمع الذوق وحب التحرر والاستلطاف على حمل سناء على دعوة سعفان إلى تناول العشاء مع عمتها فى قصرها ، فتلك العمة هى البقية الباقية من أهلها ، وهى كافلتها وراعيتها بعد فقد والديها وهى طفلة . . .

ومع الأيام وجدت فيه عشيراً لطيفاً فى غير رخاوة ، وسميراً أنيساً فى غير ضعة ولا ملق . . . وسحرها منه تلك البساطة المعتزة بنفسها ، وذلك التواضع الذى ينبض بالإباء والشمم . . . وفهمه للحياة بعقلية متحررة مستقلة ، وليس تفكيره من قبيل الصيغ المحفوظة والقوالب المنقولة .

ويدأ حبه — دون أن تفطن — يسرى فى نفسها سرى النار ، يزيده اشتعالا تلك النظرات الطويلة المحرقة التى كانت تضبطه يصوبها إليها فى سكون مشحون بعواطف مكبوتة لا تجد طريقها للانفجار !

وكلما اختلت بنفسها تتجاذبها عوامل مقلقة . كانت تقارن بينه وبين أبناء بيئتها ، إنه يختلف عنهم اختلافاً بيناً . فى الذوق . فى الطباع . فى

العادات وطريقة التفكير . كانت تعيش فى صراع بين عاطفة قوية فوارة تدفعها نحوه ، وبين عقل يحذرها من زواج غير متكافئ فيشمت فيها الأعداء والأحباب .

أما سعفان برغم الحب الذى كان يتلظى فى قلبه فقد أحجم عن مصارحتها خوفاً من أن ترده رداً يجرح كبرياءه وكرامته ، ورغبة فى استدامة هذه المودة التى يفرق من انقطاعها إن هو تمادى وأعرب لها عن مكنون قلبه . . .

وذات مساء . وكان على موعد معها لتناول الشاى فى قصرها المطل على النيل ، وفى الشرفة ، وبين أنغام الموسيقى الشجية الهادئة ، قدمت سناء فنجان الشاى لسعفان وعيناها إلى الأرض حتى لا تلتقى بعينيه المحرقتين ، فقد أصبحت تقلقها نظراتهما وتجعلها تفقد بعض اتزانها .

ولامست يده يدها فى حركة طائشة لم يستطع التحكم فيها فانسكب بعض الشاى المغلى على يده ، فجفل ولكنه كتم الألم الذى استشعره للسعة السائل الحار ، وفزعت سناء ودون أن تدرى أخذت يده بين يديها فى لهفة بالغة . . . وفى الحال سقطت كل الحواجز التى أمسكت كلا منهما عن الآخر وتعانقا فى لهفة مشبوبة تقطعت لها الأنفاس . . . وغابا عن العالم فى قبلة أودعاها كل أشواقهما وحرمانهما الطويل .

* * *

ــ عمتى : سأتزوج سعفان .

وزوت عمتها ما بين حاجبيها ، ولم يرقها أن يكون زوج ابنة أخيها اسمه سعفان ، وقالت فى هدوء مشوب بالأنفة :

ــ وهل يصلح هذا الاسم للارتباط باسمك يا سوسو؟

فأجابتها فى مزاح لم تخطئ فيه العمة صدق العزيمة والتصميم :

— لقد انتويت أن أتزوج الشخص يا عمتى لا الاسم فلست ممن يتزوجن الأسماء . . .

وتزوجا . وأمضيا شهراً يتجولان فى أكبر مصايف أوربا ينهلان من الحب ما حرما نفسيهما منه طويلا . . .

وبمجرد وصولهما انهالت عليهما الدعوات للتكريم بالزواج وسلامة الوصول . وفى الحفلة الأولى ، ألفت سناء نفسها قد تزوجت الاسم فعلا كما قالت عمتها حينما تزوجت الشخص . . . فقد راح الشبان والشابات يلذعون عريسها بالنكات . . . أما ذوو الشعور البيضاء فكانت نظراتهم صامتة ، ولكنها ناطقة نحو هذا « الدخيل » الذى قفز من فوق السياج وقطف زهرة من زهرات مجتمعهم الراقى . . .

وتجاهل سعفان لأنه قدر أن هذه الحياة هى حياة سناء التى لا تستطيع أن تعيش بدونها ، ففيها ولدت وفيها نشأت وعن جوها وتقاليدها اكتسبت أنفاسها ولحمها ودمها ومقومات شخصيتها . . . ومن جهة أخرى فهو يعزها إعزازاً لا يستطيع معه أن يخدش كرامتها أمام بيئتها بتصرف هو أقدر على إتيانه لو أن الأمر اختلف وكان هؤلاء الناس لا يمتون إليها بصلة . . .

وانقضت الأيام وهو يتجرع المهانة والسخافات إرضاء للزوجة الحبيبة التى أنشب حبها فى قلبه أنياباً تدميه يعسر عليه نزعها ، وهو ينتظر بصبر وجلد أن تزهد فيما يسبب الألم لزوجها فتبتعد — دون طلب منه — عن البيئة التى لا شغل لها إلا تشويه عباد الله العاملين . ولكنها لم تفعل ! . .

وذات مساء زاد فتى من الفتيان فى تعريضه به ، فلم يملك نفسه وأعلنها حرباً باردة ، فى تهكم وزراية . . . فلم يفطن إلى قاعدة من القواعد المتفق عليها فى ذلك الوسط وما دونه إلا وخالفها جهراً . . . ولم ينطق بكلمة إلا بلهجة الريف الخالصة . ولا سمع تعبيراً أوربياً إلا وسخر

منه وتساءل عن معناه حتى إذا فسره له مفسر أطلق ضحكة مجلجلة ، وهو يستعيد الكلمة مرات بشكل ساخر متهجم ! .

وكأن هذا لم يشف غليله فراح يتناول بعض ألوان الطعام بيده . بين استنكار الحاضرين وتغامزهم. حتى إذا خيل إليه أن الكيل قد طفح دعاها للانصراف قبل انقضاء الحفل وهى تكاد تذوب خجلا . . .

لم ينظر إليها ولم يحدثها طوال الطريق وقد بيت أمراً فى نفسه ، وراح يقود السيارة فى اندفاع مجنون . وهى بجواره منكمشة على نفسها . . .

ووصلا إلى البيت ، ودخلا حجرتهما فى صمت ، وجلست سناء على حرف الفراش واجمة شاردة ... ولم يلبث سعفان أن وقف أمامها وقال لها فى جد لم يخفف منه رقة صوته :

— سناء . آسف لما حدث هذه الليلة . ولكنى لم أطق صبراً ... لقد انتهزتها فرصة لكى أهيئ لك العذر المناسب أمام بيئتك . . . لقد تبين لى — للأسف الشديد — بعد فوات الأوان . أن بيئتينا مختلفتان جداً . . . : اختلاف الزيت والماء ... وقد أحسست شقوتك بهذا الزواج الذى اندفعت إليه عن جهل بحقائق الحياة . . . وقد غالطت نفسى شهوراً ولكنى لم أستطع الاستمرار ! ... وما حدث الليلة تعلة كافية لكى تقولى إنك أنت التى طلبت الطلاق ، لأنى لست الرجل المناسب .

وكسا الوجوم وجهه ، وتخاذل صوته . وكادت تخونه شجاعته وبقى غير متجاسر على النظر فى عينيها . . . وهو ينتظر كلمة من شفتها تنهى هذه الحياة التى يعتقد أنه لا جدوى فى استمرارها على هذا النحو المزرى . ولما لم تتفوه بكلمة وأصبح الصمت ثقيلا على نفسه قال وقد بدأت ثورته تهدأ قليلا :

— آسف يا سناء . . . لم يكن من ذلك بد . . . ولكنها النهاية المحتومة . . .

ولم تتكلم ! . . لم ترد ! . . أحست بوخزات من نار تلسع أحشاءها وتدمى قلبها، وراح شريط حياتها الطويل يتراءى أمام ناظرها؛ بين طبقتها المترفة، والفراغ العاطفى الذى كانت تستشعره معظم أيامها . . . والملل الذى كان يلف وجدانها. . . وبين ما أنبته فيها حب سعفان من إحساسات جديدة لم تألفها مدى حياتها ... وهدوء واستقرار وخلود إلى البيت الذى لم يكن له معنى فى حياتها الغابرة . . .

وشعر سعفان أنه سيضعف أمام حزنها وأراد أن ينهى الموقف المفجع بأى شكل . . . وإذا بها تندفع بين ذراعيه وتقول من أعماقها :

ــ لا تتركنى يا سعفان ، هى النهاية . . . أجل ، ولكنها نهاية حياة قديمة . . . وبداية حياة وليدة . . .

فنظر فى عينيها غير مصدق ، فاستطردت قائلة :

ــ أجل . . . لقد انتهوا من حياتى من حيث بدأت أنت . . . بل من حيث بدأنا معاً . . .

ففغر فمه وقال مبهوتاً :

ــ وتخسرين المجتمع ؟ وتخسرين أصدقاءك وذويك ؟

فابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت :

ــ أتحسبنى غبية إلى هذا الحد فلا أعرف إذا خيرت بين العالم وبين نفسى أيهما آخذ وأيهما أدع . . . سعفان حبيبى ! . لقد خيرت فاخترت . . .

فقال مستبشراً :

ــ أحقاً ؟ أمن قلبك هذا الكلام ؟ .

فرفعت ذراعيها تحتضن رأسه إلى صدرها المتهدج فى لهفة وقالت :

ــ لا تسلنى ! اسأل هذا الذى تسمع دقاته . . .

مسألة مستوى . . .

وقفت أمام المرآة تنظر إلى صفحة وجهها وقد أرهقها المرض وطبع على خديها لوناً قاتماً زاده قتاماً هالات سوداء حول عينيها الذابلتين. ورفعت يدها تتحسس خصلات شعرها الجعد ، ثم تحاملت إلى التليفون تطلب رقماً . وانزعج زوجها وهو يسمعها تخاطب الكوافير فى حديث طويل ترجوه فيه أن يحضر بنفسه ، وهو يعتذر بسبب كثرة العمل لظروف العيد . وأخيراً اقتنعت بعد إلحاح ، أن يرسل لها العامل الجديد الذى وفد على المحل حديثاً . وهو من أكفأ من عمل لديه ، وسوف ترى بنفسها مبلغ ما يتمتع به من مهارة فائقة . وصاح الزوج بعد أن وضعت المسماع :

— ولماذا تعرضين نفسك لنكسة يا حبيبتى ولم تبلى بعد من مرضك ؟

فرفعت حاجبيها فى دهشة بالغة ، وقالت وهى ترمقه بنظرة متعالية :

— أتظن أننى أسمح لنفسى أن يرانى أقاربك وأنا على هذا الحال من تشعث الشعر ورداءة الخلقة ؟ !

— ولكن منظرك ليس رديئاً على الإطلاق ، وهم ليسوا غرباء . . . ثم إنهم أناس بسطاء جداً ، ولا بأس من أن يروك وأنت فى فراشك ما دمت مريضة ! . . . وسترتاحين جداً إلى طيبتهم وبعدهم عن المظاهر . . .

— أنت تعلم يا رفيق أننى نشأت فى بيت يحرص على مستوى معين فى كل دقائق الحياة . . . لم أر يوماً والدى إلا بكامل ملابسه كأنه على أهبة استقبال أغراب . . . كذلك أمى . لم تكن تخرج من حجرة نومها إلا وهى فى أبهى منظر يمكن أن تقع عليه عين إنسان . . . ولو كنت رأيتهما يا رفيق لما خطر ببالك قط أن تناقشنى فى مثل هذه الأوليات . . . ولو أنك أعلم بها منذ يوم تعارفنا وزواجنا ! . . .

وهز رفيق رأسه مغلوباً على أمره . . . فهى فعلا من ذلك الطراز من النساء الذى تشعر نحوه بقدر متساو من التقدير والاستلطاف . فلا تدرى هل الاستلطاف مبعثه التقدير أو الاستلطاف يحدث على الرغم من التهيب الذى تشعه فيك الشخصية القوية المترفعة . . .

فحينما أعجب بأناقتها فى ذلك الحفل الذى تلاقيا فيه لأول مرة ، زاد تقديره لها وهو يلاحظ تصرفاتها وطريقة حديثها و إشاراتها وتلميحاتها ... ولم تنته السهرة حتى وقعت من نفسه موقع الاستلطاف الشديد . . . وصمم على الزواج منها ، وأقرته هى بعد ما تقصت على أهله ورضيت عنهم . وإن كانوا أقل منها مركزاً . . . وزاد تقديره لها المركز المرموق الذى كانت تحتله فى عملها . وحينما تقدم يطلب يدها من قريبها — لأنها يتيمة الأبوين وهو كافلها — استراح إلى البيئة التى سيصاهرها .

ولكن رفيقاً كان يعتبر الزواج شيئاً ، وفترة التعارف والخطبة شيئاً آخر . . . فهو فى بيته يريد أن يكون حراً . يخلع عنه مع ملابسه قواعد الاتيكيت التى يكبل نفسه بها طوال اليوم ، بيد أن زوجته لم تكن توافقه على أي تصرف خارج عن القواعد التى تربت عليها وكانت أمارات الاستياء ترتسم على وجهها بوضوح كلما رأته يخرق إحدى هذه القواعد ...

فمثلا إذا حدث أن خلع ملابسه بعد حضوره من عمله ظهراً قبل أن يتناول طعام الغداء ، نبهته بلطف أن ظهوره بهذا المنظر ليس مستحباً أمام الخدم . . . والبيجامة جعلت للسرير لا للتخطر بها فى البيت . . .

وهكذا كانت دائمة التنبيه له فى كل صغيرة من حركاته ، ولكن «رفيقاً» — رغم ما كانت كلماتها تسبب له من مضايقات — كان يقدر فيها معدنها المترفع . . . وبقدر هذا التقدير يحس بنوع من الاستلطاف لها والزهو بها أمام الناس . . .

— رفيق . أرجوك أن تخرج الصينية الكبيرة المصنوعة من الفضة من البوفيه . والكئوس المورانو لأنى لن أستطيع القيام بهذا العمل وحالتى كما تعلم .

— يا زوجتى العزيزة . . . يا حبيبتى . لماذا تجازفين بهذه الأشياء الثمينة وأنت غير قادرة على الإشراف عليها الآن ؟ . أرجوك ! . إن عمتى وزوجها لن يعنيهما أن يشربا فى كئوس من المورانو أو أكواب من الألومنيوم . . . تأكدى ! . والله . إنهما لن يفرقا بين هذا وذاك . . . ثم ما الداعى للصينية الفضية ؟ . . . إنها كبيرة الحجم جداً تتسع لثلاثين أو أربعين كأساً . . . وهما اثنان لا أكثر . . . وأنا لا أحسن استعمال هذه الأشياء . والخادم فى عطلتها . . .

— كيف تقول هذا يا رفيق؟ إنى أعجب حقاً من ملاحظاتك العقيمة! هذه الصينية جعلت خصيصاً لتقديم الشربات للضيوف وفى هذه الصينية نفسها كانت جدتى تقدم الشربات ، ومن بعدها قدمت فيها أمى الشربات. وفيها سيقدم فى بيتى الشربات . . . ثم إن أقاربك يجب أن يشعروا بحقيقة المستوى الذى نحرص عليه فى معيشتنا . فالمسألة كما ترى مسألة مستوى قبل كل شىء . أم تريدنى أن أحطم القواعد التى نشأت عليها خوفاً من أن تكسر كأس ؟ . . ولهذا السبب تتعلل بضخامة حجم الصينية كأنه سيرهقك حملها دقيقتين ؟ وهو كذلك يا عزيزى ! سأقوم أنا على خدمتهما ما دمت لا تريد ذلك . . . هون عليك ! . .

وسمع صوت جرس الباب فأسرع رفيق وقامت تيسير تعدل من هيئتها ، ودخل شاب يحمل فى يده حقيبة . وبأدب شديد راح الحلاق يعتذر عن تأخره لأنه نسى رقم البيت واضطر للعودة إلى المحل ليتأكد من صحة العنوان . . .

وتقدمه رفيق إلى البهو الصغير حيث تجلس زوجته . وأضاء مصباحاً

جانبياً لكيلا يتعب الضوء الشديد عينيها لأنها لم تكن تتحمل الضوء طوال مدة مرضها . . .

ونظر الأسطى عباس إلى شعر تيسير ثم إلى وجهها ، ثم عاد يطيل النظر إلى عينيها ، وتولاه شبه ذهول وجعل يفتح فمه ويغلقه علة مرات دون أن يقول شيئاً ! . . ورفيق ينظر إليه فى عجب من أمره . . . ثم صاح الأسطى عباس فجأة :

— غير معقول ! . . . والنبى تيسير ! . . . أقطع دراعى إن لم تكونى تيسير . . . تيسير عبد الحميد حسونة !

ورفعت تيسير إليه عينين أرهقهما المرض ، رفعتهما إليه فى دهشة واستنكار لتجد نفسها وقد صعقت فجأة فلم تستطع أن تفوه إلا بكلمة واحدة :

— عباس ؟ ! . . .

وسكتت بعدها كالتمثال ، فلم يفتح الله عليها بكلمة أخرى ، وانطلق عباس يقذف الكلام من فمه كالمدفع الأوتوماتيكى الرشاش ، بعد أن أثارته هذه المفاجأة ففجرت ينابيع طبيعته الساذجة :

— طبعاً عباس ! . فاكرانى ؟ . . . أظن لا يمكن أن تنسينى ؟

ثم التفت إلى « رفيق » المصعوق وصاح وهو لا يرى شيئاً سوى ما أطلقته مخيلته من صور مزدحمة كانت حبيسة فى قمقم ذكرياته :

— لا مؤاخذة يا بيه . . . تيسير أنا مربيها . . . على يدى هذه . . . يا ما أخذت منى العلق الساخنة وهى صغيرة . . . فاكرة يا تيسير ؟ . . فاكرة حينما شددتك من شعرك فجريت إلى أمى تبكين وتولولين . . . والشتائم المنتقاة تتدفق من فمك الصغير حتى لطمت أمى وجهها وركبها عفريت جعلها لا تقول إلا كلمة واحدة ترددها كالمجنونة « يا فضيحتك يا أم عباس ! يا فضيحتك يا أم عباس ! . . . »

وأخذ يضحك حتى دمعت عيناه . . . قبل أن يقول لها :

— وشعرك لم يزل هو هو . فروة من الليف ! . هكذا كنا نسميها : « تيسير أم ليفة » . وكنت أجرى وراءها وأقول لها : « راس العبد ياراس العبد» الله يرحمها والدتك . . . كانت تقول لى « يا واد يا عباس بطل شيطنة يا واد . . . والنبى لأقول لأمك إن ما رجعت عن البنت . . . إنت مالك ومالها يا واد » . . . والمرحوم أبوها يا سعادة البيه . . . عليه ألف رحمة ... كنت أروح إلى سوق السمك وأقول له : « أمى تقول لك يا معلم عبد الحميد وحياة عينيك نقى لها أقتين بساريا ، بيدك الحلوة » . . . ألف رحمة تنزل عليه . كان راجل طيب . . . ابن حلال وأمير . . . كان لا يعود آخر النهار إلا وفى يده أكلة سمك معتبرة للعيال ، وورقة فيها السمك الكهنة والبواقى للقطط ! . وكانت القطط عارفة ميعاد رجوعه . . . تتلم وتستناه على رأس الحارة ، وأول ما يهل على رأس الحارة تعمل له مظاهرة كبيرة ، نقوم كلنا نقول لتيسير : أبوك جه ! . . . أصلنا كنا جيران يا سعادة البيه . . . احنا الناس اللى فوق . وهم الناس اللى تحت ... فين زمان . . . سنين طويلة . . . كانت أيام حلوة صحيح . . . ووالدتك الله يرحمها ! ، كانت الناس كلها تاكل صوابعها وراء الكشرى اللى تبيعه على راس الحارة . . .

واقترب من تيسير وراح يتفقد شعرها ، ثم مصمص شفتيه وقال :

— كانت دائماً تقول : نفسها قبل ما تموت تشوفك معلمة تاخدى ٧ جنيهات فى الشهر ... ورحنا مدرسة المعلمات ... وتركنا الحارة من سنين ... لكن صحيح مصير الحى يتلاقى ... قص وإلا فورمة إن شاء الله أخوك عباس دلوقت أسطى قد الدنيا . . . طلباتك كلها . . . الأخوية لها حق . . . أمال ! . . .

وفى هذه اللحظة ، أقبل « رفيق » من المطبخ يحمل الصينية الفضية

المترامية التى تتسع لثلاثين كأساً ـ وعليها كأس مورانو به شراب أحمر وقال ، وهو ينحنى أمام الأسطى عباس فى أدب مموه :

ـ اتفضل . . . اتفضل اشرب يا أسطى عباس .

وصاح الشاب مذهولا :

ـ ـ يا خبر ! كل الصينية دى ؟ وتاعب نفسك التعب ده كل ليه يا سعادة البيه ؟ . . إحنا قد المقام . . . دى الحكاية ما تستاهلش ده كله . . . نهارنا أنس ! . . .

وأجاب رفيق فى صوت حالم :

ـ . . . المسألة قبل كل شىء . . . مسألة مستوى . . .

اللطخة الحمراء

كانت تطفر فى الطريق بقدها الممشوق لا تشعر بالأرض تحت قدميها كأنها تسبح فى الهواء والحياة من حولها شعلة . لا كائنات ولا عربات ولا شيء يعترض مسيرها . . . وعيناها الجميلتان مثبتتان على نقطة مضيئة . . .

نعم . آن لها أخيراً أن تفيء إلى واحة كل ما فيها ينبئ عن الراحة والهدوء النفسى .

وشق الكون نفير حاد لسيارة مسرعة وصوت مزعج لاحتكاك فراملها بالأرض . وتنبهت « سناء » للسيارة تكاد تلامسها ورجل يفتح بابها فى عنف ويخرج منه فى حالة هياج شديد ثم جموع تتقاطر حولها كأنما الأرض انشقت ولفظتهم ! . ونظرت مبهوتة لما يدور حولها محاولة أن تخترق سور الآدميين الذى ضرب حولها ، بيد أن الرجل لم يترك لها مجالا للفرار بل صاح فيها بعنف :

— أنائمة أنت ؟ لولا لطف الله لدهمتك السيارة . . .

وأحست بضحكة تدغدغ حلقها لمنظر الرجل المهتاج بصلعته التى تبرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وحتى هذه اللحظة لم تكن تعتقد أنها المعنية بكل هذا الهرج . ولم تسعفها الكلمات. ولا وجدت من نفسها ميلا للدخول فى معركة . والوقت لا يسمح ، ولا الظروف أيضاً تسمح . . . فعلى بعد خطوات ، وفى المنتدى الرابض على مشارف الضاحية ... ينتظرها . . .

وبحركة آلية نظرت إلى ساعة معصمها ، وبحركة آلية أيضاً اخترقت الجموع التى بدأت تتفرق حينما لم يجدوا ما يستدعي تجمهرهم . وجدت

فى السير لتعوض الدقائق التى فقدتها . . .

وانعطفت إلى اليمين بسرعة وإذا بعجوز متداعية تعترض طريقها مادة إليها يداً معروقة صائحة بصوت لا يكاد يسمع :

– إلهى لا يحرمك من شبابك وينجح مقاصدك .

واستبشرت خيراً لدعواتها ، ودون أن تكلف نفسها إلقاء نظرة عليها ، ألقت فى يدها الممدودة قرشاً وانتفضت كأنما لتلقى عن كاهلها آخر وعثاء الطريق ، وهى ترنو بعينيها المتهللتين إلى المدخل الحديدى الضخم بأبوابه ذات القضبان المزركشة وخلفه يربض المبنى الكبير الفخم المتعدد الحجرات والأبهاء يطل فى عظمة من مكانه على حديقة مترامية الأطراف ، جميلة التنسيق انتثرت بين خمائلها مظلات متعددة الأشكال ومن تحتها مقاعد عليها وسائد وثيرة زاهية الألوان . . .

ودلفت من البوابة الكبيرة فانحنى لها البواب نصف انحناءة وراحت تتفرس الوجوه فى نظرة عابرة ، فالوقت حوالى الظهر والرجال قلة ضئيلة معظمهم شباب انهمكوا فى المطالعة ، أما الشيوخ فجلسوا مسترخين تحت المظلات يستمتعون بالنسمة الهينة . . .

ودارت دورة وهى تحاذر النظر إلى ساعة معصمها خوفاً من نظرة ماكرة تتعقبها . . . ولما لم تجده اختارت مظلة نائية وجلست وظهرها إلى المبنى الكبير حتى لا تطالعها العيون ، وحمدت ربها أن أحضرت معها كتاباً وفى زعمها أنها تستطيع قطع الوقت فى المطالعة لحين حضوره ...

ما الذى أخره عن موعده ؟ !

ألقت على نفسها السؤال وهى تهبط على المقعد فى تكاسل وقد زالت نصف فرحتها بقرب لقياه . . .

ألعله استدعى إلى المستشفى لحالة مستعجلة ؟ ربما . . . فهو لا يمتلك وقته . إنه طبيب امتياز حديث التخرج عرضة لأن يطلب فى أى ساعة ،

وكثيراً ما كان يعتذر أو يتهرب ليسرع إلى موعدها ليجلس معها نصف ساعة أو ربعها ثم يعود على كره منه . ولكنها الضرورة — الضرورة يا سناء هي التي تحتم على أن أتركك وأنا أتحرق شوقاً للجلوس معك — وتتضاحك على مضض وهي تودعه وتوصيه بمرضاه خيراً . . .

ولمحت النادل مقبلا . . .

أف لهذا الرجل ، إن منظره بأسنانه السوداء المكسرة ، وضحكته الغبية تشعرها بالتقزز من كل شيء حتى من حياتها . . . ودائماً تقع قرعتها فيه . . . ودون أن ترفع عينيها لترد على تحيته المعتادة قالت :

— عصير رمان .

وقلبت صفحات الكتاب دون أن تقرأ كلمة واحدة ، ولم يلبث أن عاد النادل بما طلبت . . . هكذا دائماً حظها يتعقبها . . . صاحت وقد نزلت قطرة كبيرة من العصير على ثوبها الأبيض الناصع .

— انظر ماذا فعلت ؟

فاتسعت ضحكته حتى كشفت عن أسنانه كلها ، وقال يحاول تهوين الأمر عليها :

— لا عليك يا سيدتي . قليل من الصابون والماء وينتهي كل شيء .

وقالت مغيظة :

— أي ماء وصابون يا رجل ؟

— الماء والصابون يا سيدتي . . . يزيلان كل شيء . المسألة بسيطة ، لا تشغلي بالك بها !

وهزت رأسها مستنكرة وهي تلعن ساعتها ونهارها . فهذه اللطخة ستترك آثارها في الثوب إلى أن يبلى . . .

وسرحت بخاطرها .

بالأمس القريب كانت زوجة لرجل تعبده ! . بالأمس القريب

كانت تعتقد أنه محور الحياة كلها وهى جزء من هذا المحور ، لا حياة لها بدونه . . . هو ماضيها وحاضرها ومستقبلها . . . لها رب فى السماء وهذا الرجل ربها على الأرض ، إشاراته أوامر ، وكلماته منزلة . . . وبين يوم وليلة رماها بيمين الطلاق ! . . .

لماذا ؟ ! . ماذا فعلت ؟ !

لم تفعل شيئاً . كانت جريرتها كلها أنها أحبته ، أحبته بكل كيانها وبكل ذرة فى جسمها ! . . . ولماذا رفض حبها ؟ أهى دميمة ؟ بالعكس هى آية فى الحسن ... ليس هذا ادعاء بل بشهادة كل من يراها ويعرفها .. بل إن جمالها يدير الرءوس . . . أهى مهملة فى بيتها ؟ هى سيدة بيت ممتازة فى كل شيء . . . وهى محدثة لبقة تعرف كيف تسيطر على المجلس من حولها . . . ما هو ذنبها إذن ؟ . ذنبها كما قال لها البعض أن الغرام المشتعل كثيراً ما يرهق بعض الرجال أو معظمهم فيتحول حبهم إلى بغض شديد ! . . .

أحقاً ؟ ! لو أن هذا الكلام قيل لها عن أى رجل آخر لما صدقت فما بالك والكلام عن « عارف » زوجها المحب المحبوب . . . ولكنها صدقت ، صدقت وهى تضرب كفاً بكف ودموعها تتساقط محرقة على خديها ، وصدى صوته الأجش يخترق طبلة أذنها فى وقع غريب :

ـ أنت طالق . . .

وأقسمت بينها وبين نفسها أن لا تكون لرجل بعد الآن . . . أن لا تجعل إنساناً يلمسها . فلا يوجد على ظهر الأرض من يستحق حبها .

ومرت الأيام وهى معتكفة لا تريد أن ترى أحداً أو يراها أحد . ورفضت حتى أقرب المقربين إليها . . . وتكاثرت النساء حولها كل واحدة منهن بكلمتها . . .

. . . ليذهب إلى الجحيم ، هل خلت الدنيا من الرجال . . . أنت

صغيرة وجميلة . . . بمثلك لم تتزوج بعد ... ستجدين عشرات وعشرات يتمنون ظفرك . . . علام الحزن والبكاء ؟ !

لقد لفظها وسار فى طريقه لا يحمل شيئاً من آثار حياتهما السابقة . كمن ينفض غباراً عن سرواله ويواصل سيره . . . أما هى . . .

ولم تعلق ، تركتهم يتكلمون وانطوت على نفسها تجتر آلامها فى وحدتها .

وفجأة مرضت والدتها ونقلت إلى المستشفى ، وفى المستشفى لازمتها وكان طبيبها المعالج يتردد عليها ليلا ونهاراً لخطورة حالتها .

وذات ليلة اشتد عليها المرض رغم تحسن حالتها أثناء النهار ، فأسرعت تستدعى الطبيب فقيل لها إنه خرج لحالة مستعجلة ، وأسرع الدكتور « عمر » نائبه لعيادة المريضة ، وحول سرير الأم الغائبة عن وعيها وقفت سناء فى شبه ذهول وراح الدكتور عمر يعمل بهمة ونشاط . . .

كانت الساعة بعد منتصف الليل بقليل حينما فتحت الأم عينيها وأخذت تتطلع بعينين نصف متنبهتين إلى الوجهين المطلين عليها : وجه ابنتها القلق ووجه رجل غريب لم يسبق لها أن رأته .

وفى هذه الليلة لم تستطع أن تكتم شعورها وهى ترى الحياة تدب فى جسم أمها بعد موات . . . فانهارت أعصابها وانكفأت تقبلها وهى تشهق شهقات مكتومة ، ورفعت أمها يدها فى وهن تداعب رأسها ولا تجد القدرة على الكلام . أما الدكتور عمر فلم يتركها حتى اطمأنت تماماً أن الخطر زال عن أمها وشيعته بابتسامة . . .

ورفعت عينيها عن الكتاب لصوت ضحكات طفل جلجلت بجانبها ، وشد الطفل طرف ثوبها مداعباً وجرى تسبقه ضحكات عابثة . . .

وابتسمت . لكم ودت أن يكون لها طفل من زوجها ولكنها لم تنجب برغم السنوات الثلاث التى قضتها معه . . ألعله كرهها لهذا السبب ؟ .

وهزت رسها كأنما لتطرد شبحاً مزعجاً عن ذاكرتها . وتداخلت صورة عمر لتطرد البقية الباقية من الطيف الذى حوم حول أفكارها ، ورأت ابتسامته المضيئة تنعكس على المرئيات .

إنه شديد الشعور بالمسئولية نحو مرضاه ، عرفت فيه هذا أثناء الفترة التى قضتها والدتها فى المستشفى . لا شيء مهما بلغت أهميته . . . يثنيه عن عيادة مريض . . . إنه يقدس عمله ويتفانى فيه . لكم هى معجبة بشهامته وإخلاصه ورجولته ، برغم صغر سنه .

إنه فى الثامنة والعشرين ، أما هى ففى السابعة والعشرين . فإذا قيست أعمال المرء بسنه قدرت له وهى مستريحة الضمير أربعين عاماً . . .

ولأول مرة فى حياتها راحت تقارن بينه وبين من كان زوجها ، فلشهور قليلة مضت لم تكن تجرؤ على وضع أحد بجانب زوجها فى الميزان ! . ووجدت نفسها تتحلل من رق الرجل الذى استعبد عواطفها ثلاث سنوات . كلا . لم يكن استعباداً هذا الذى كانت تشعر به نحوه لأنها هى التى اختارت هذا الوضع عن طواعية ، وبمحض إرادتها . . . وهى التى أرادت لنفسها أن تعيش داخل إطار حياته . . . لا رغبة لها إلا من خلال رغباته . ولا كيان لها إلا بما يجود هو به عليها من فيض كرمه . . .

لماذا ألغت نفسها هكذا ؟ لا تدرى ! وإنما الذى تدريه أنها إذا أحبت فنيت فيمن تحب . لا وجود لها إلا من خلال وجوده . .

وتسربت برودة إلى أطرافها وهى تسائل نفسها :
ألعلها مع عمر أيضاً انتهجت هذا المنوال ؟

وبرغم إحساسها بالهزيمة ، فقد ارتفع صوت من أعماقها يحتج . عمر إنسان ، عمر شديد الشعور بالمسئولية ، عمر لا يلقى الكلام على

عواهنه . . . لقد أحبك بإخلاص ، ولم يفتح لك قلبه إلا بعد أن تأكد أنك تبادلينه عاطفته . . .

واستنكرت « تبادلينه عاطفته » هذه . لقد أقسمت أن لا تسلم قلبها بعد الجحود الذى منيت به من زوجها . . . ألعل عمر مثل زوجها ؟ . . . كلا وألف كلا ، فلا وجه للمقارنة بينهما . . . لقد خدعت فى زوجها وأعماها حبها له عن تبين عيوبه . أما عمر فلم تسلم قلبها له إلا بعد شهور من التعارف والاستكشاف حتى اطمأنت له تماماً . . .

ورفت ابتسامة على جوانب فمها وصوته العميق يسرى بين أعطافها وكلماته العذبة تداعب مسامعها : « ألم يحن الوقت بعد أن تثقى بى ؟ تأكدى أنى مخلص فى كل ما أقوله لك ؟ . . » كانت متأكدة من حبه وإخلاصه . ولكنها كانت زاهدة فى بناء حياة جديدة يشاركها فيها رجل تعطيه قلبها وروحها ، ثم يغدر بها . ليست مستعدة لتجربة ثانية بعد فشلها فى الأولى . . .

ولكن الحب عنيد ، وجبروته لا يقهر ، وعمر إنسان وهى عاطفية وسريعة الانقياد حينما تؤمن بشخص . . . وقد آمنت بعمر ، ولكنها لم تنس نفسها فى أحرج المواقف . كانت دائماً مسيطرة على زمامها كيلا يفلت منها ، أخبرته بقصة زواجها . ولن تنسى الدهشة التى ارتسمت على وجهه حينما علم أنها كانت زوجة ثلاث سنوات ، ولم يصدق سمعه . وشعرت بخيبة أمل . فهما ظلمت المرأة فى حياتها وأصابها من سوء الحظ ما أصابها ، لا لعلة فيها بل لنقص فى الرجل أو لحكم جائر منه . . . فهى الملومة دائماً . . . أليست تسمى مطلقة ؟ . أليس الطلاق وصمة فى جبين أى امرأة ؟ . إن الأصابع تشير إليها أينما ذهبت . . .

لقد أقنعته من أول الأمر أنها لن تتزوج ثانية ؛ واقتنع بكلامها ، واتفقا على أن يكونا صديقين . وبر بوعده ، ولكن الأيام أثبتت لهما أن

الصداقة غالباً ما تتحول إلى حب . حب قوى مكتسح إذا تلاقت الأفكار واتفقت المشارب .

وعرض عليها الزواج ولم تستطع أن ترفض . كان حبه قد تسلل وتشعب واستكان فى كيانها كله . . .

واليوم . اليوم سيزف إليها البشرى . بشرى موافقة أمه وإخوته على زواجهما ليتوجا حبهما باجتماع شملهما . . .

وتنهدت من قلب متخم بالسعادة ، وأحست بخطوات تقترب ولم تجرؤ على الالتفات خوفاً من أن تشى عيناها بمكنون صدرها ، وشعرت بنبضات قلبها تكاد تتوقف حينما ارتسم خياله على أديم الأرض بجانبها ... ومرت لحظات لم تدر خلالها بنفسها ... وأخيراً أتاها صوته العميق الهادئ يقول فى نبرة اعتذار وأسى :

ـ آسف يا سناء . . . تأخرت عليك .

هنا فقط استطاعت أن ترفع عينيها حينما صفعها ما فى صوته من لوعة :

ـ حالة مستعجلة ؟

فأجابها وهو يحاذر التقاء عينيه بعينيها :

ـ كلا !

فسكتت هنيهة . ولما لم يتم سألته :

ـ ماذا إذن ؟

فقال ببطء .

ـ لم أستطع . . . فى هذه المرة .

وشردت ببصرها وكل خلية فى جسمها تنبح معولة . وأتاها صوته كأنه من أعماق جب :

ـ سأقنعهم يا سناء . إبشرفى سأقنعهم. والدتى مريضة لم أستطع أن

أقسو عليها . تركتها حتى تسترد عافيتها . . .

ورفعت إليه يدها مشيرة أن لا يتم وقد امتلأ فمها بطعم الحنظل .
وفجأة رفعت رأسها فى تحد وقامت بكبرياء ومدت إليه يدها قائلة :

— وداعاً . . .

وهنا فقط فطن إلى اللطخة الحمراء فى ثوبها ، فتشبث بهذه الفرصة ليكسر حدة الموقف ، وصاح بها فى استهوال :

— ما هذا ؟ .

— هذا ؟ . . . لا شىء . لطخة . مجرد لطخة .

— ولكنها فظيعة . . . لقد أفسدت ثوبك . . .

وبابتسامة باهتة قالت له فى استهانة وهى تهم بالسير فى مواجهة الشمس . . .

— لا تشغل بالك بها . . . قليل من الماء والصابون . . . وينتهى كل شىء . . .

وجاء الأوان . . .

لم تكن تشعر بنفسها وهى تعبر الشارع فى خطوات كسيرة يائسة . وصوت ضميرها كالسياط تحسه ينهال على يافوخها فى دقات رتيبة مزعجة تسلمها لأسى مر . . . وقد انحنى رأسها كأنما لتتحاشى نظرات الناس من حولها . . . وفجأة أحست بخبطة قوية ارتج لها جسمها كله ، وشعرت بآلام مبرحة ، وقبل أن تبتعلها الدوامة سمعت أصوات صراخ كأنما تأتيها من عالم سحيق . . . ورأت وجوهاً تتقاطر حولها تنظر إليها من أعلى . . . وأفواهاً تفتح وتغلق فى سرعة عجيبة دون أن تسمع لها صوتاً كأنها ترى شريطاً سينمائياً صامتاً . . . وحاولت أن ترفع جفونها ، ولكن شيئاً ثقيلا . . . ثقيلا جداً أطبق عليها . . . ثم غشيها ظلام دامس . . .

كانت الأصوات تتسرب إلى أذنيها هامسة وهى تحاول بجهد أن تفتح عينيها . . . ولكنها لم تر إلا بياضاً يحيط بها . . . يحيط بها من كل جانب . . . ومن وسط هذا البياض رأته . . . رأته يقبل عليها بطلعته السمحة . وابتسامته الرقيقة . فشعرت بدبيب الحياة يسرى فى جسمها كله كالكهرباء ... وأشرق وجهها ومدت يدها مرحبة تستقبله فى سعادة . فقال فى حنان بصوت مختلج هامس :

— كيف حالك ؟ أسعيدة أنت ؟ . . .

نعم . هى أكثر من سعيدة . . .

ومشيا متجاورين لا تكاد رجلاها تلامسان الأرض من فرط سعادتها . . . واخترقا الشوارع المزدحمة وكأنها خلت إلا منهما . . . ووصلا إلى مكان عملهما .

كان هذا دأبهما كل صباح . . . حتى أمست تعيش لساعة

اللقيا . . . تنام وطيفه آخر ما تغلق عليه عينيها . . . وتصبح لتفتح جفونها على خياله ماثلا أمامها . . .

لم يقل لها مرة إنه يحبها . . . وكان حسبها أن ترى السعادة تطل من عينيه حين يراها قادمة، فيمد إليها يده وكأنه يحتويها بين ذراعيه . . . وتمشي بجانبه يتكلمان فى كل شيء عدا الحب . . .

كانت تنتظر وترقب يوماً يكاشفها فيه بحبه ... ولكنه لم يفعل . . . وساورها ندم لاستسلامها للهواجس ... فمن يدرى ؟ ربما هو يرى فيها زميلة طيبة يستريح لحديثها ثم ينساها تماماً حينما يدير لها ظهره ويذهب كل منهما إلى حال سبيله . . .

وتململت فى رقدتها . وأخذت نفساً عميقاً أحسته ينتزع من أحشائها . وسمعت لغطاً من حولها ... ولكنها لم تفتح عينيها . . . لأنها رأته مقبلا وهى تخترق الدرب فى طريقها إلى بيت صديقتها . . . وكان آخر شيء يمكن أن يخطر على بالها أن تراه فى هذا المكان . . .

وتهلل وجهها ، وأقبل يصافحها ، وقالا فى صوت واحد . . .

— إلى أين ؟ !

وضحكا معاً فى وقت واحد أيضاً ... ومشيا متجاورين . . . دون أن يوجه أحدهما إلى الآخر رداً على سؤاله ... كأنما كانا على موعد متفاهم عليه بينهما . . . وضغط على يدها ... فارتجفت وهمس صوت من أعماقها :

— ترى هل آن الأوان ؟

وغمرتها سعادة . ولم تسحب يدها من يده، وظل قابضاً عليها ولصوت خطواتهما على الطريق المرصوف نغم أشجى فى أذنها من موسيقى موتسارت . . . وقال دون أن يلتفت إليها :

— أريد أن أراك . . .

فتضاحكت من فرط نشوتها وقالت :

ــ ها نحن . . .

فقال جاداً .

ــ كلا . أريد أن أجلس معك بمفردنا . . .

وأحست برجفة . فلم يسبق لها ــ برغم طول عهدها بالعمل ــ أن أقدمت على مقابلة إنسان فى الخفاء . . . لقد كان وضوحها وصراحتها أكبر من أن يجعلاها ترتكب مثل هذا العمل ... ولكن المفاجأة أذهلتها عن تدبر أمرها . ووجدت نفسها تسأله بصراحتها المعتادة :

ــ على انفراد ؟ أين ؟

وأجابها بثبات :

ــ فى أى مكان .

ــ لماذا ؟

ــ لأتحدث معك فى أمور تهمنا نحن الاثنين . . .

أخيراً ... ها هى ذى فرصتها السانحة قد واتتها ... ها هو ذا أخيراً سيكشف لها عن حبه ورغبته فى الزواج منها . . . ولكن لماذا لا يقول لها الآن بصراحة ؟ وإلى أى مكان يا ترى يريد أن يصحبها ؟

ورفعت عينيها إلى وجهه . . . وتعجبت . . . فبدلا من أن ترى صدى لسعادتها على وجهه . . . رأته حزيناً مهموماً !

ترى ماذا به ؟ . وأى أخبار هذه التى يريد أن يسوقها إليها ؟ وما الذى يرغمه على الارتباط بها إذا كان هذا الارتباط لا يجلب إلى قلبه السعادة المنشودة ؟ !

ووجدت نفسها تسير بجانبه كالمنومة ... فهى تثق به . . . وإحساسها يقول ذلك . . . وإحساسها لم يكذبها قط ... ثم إنه إنسان نبيل لم يصدر منه طوال مدة زمالتهما ــ وقد أربت على العام ــ ما يدل على أنه شخص

عابث أو لاه كما يفعل معظم الشباب فى سنه . . .

سنه ؟ . . . ترى كم يبلغ من العمر ؟ . . .

وانتزع هذا السؤال كل شىء من مخيلتها ، وراح يلح عليها : كم يبلغ من العمر؟ . ثلاثين . . . خمسة وثلاثين . . . أربعين . . . كلا . لم يصل بعد إلى سن الأربعين . أو هكذا خيل إليها . . .

ووجدت نفسها فى شقة صغيرة ذات حجرتين مفتوحتين على سعتهما ، إحداهما رأت بداخلها سريراً كبيراً يحتل معظم الحجرة . . . أما الثانية فكانت مظلمة لم تتبين ما بداخلها . . . وعلى أريكة كبيرة فى البهو جلس ، وأجلسها بجانبه . . . وقبل أن تفيق إلى نفسها احتواها بين ذراعيه وراح يقبلها بنهم شل عقلها عن التفكير تماماً . . .

وحتى فى هذه اللحظة لم يتسرب الشك إلى نفسها . . . وساقتها عاطفتها المكبوتة للاستسلام لعناقه ، ولكنها شعرت الغدر فى أنفاسه ولمساته وأصابعه المتشنجة تعبث بأزرار ردائها . . .

وانتزعت نفسها من بين ذراعيه ، وأحست بانكسارها يطغى على غضبها . . . وبمرارة فى حلقها . . . وألم يعصف بكيانها . . .

وتأوهت آهة طويلة ، ثم فتحت عينيها فإذا وجه والدها يطل عليها فى حنان دافق ، وأخواها الصغيران كل منهما يمسك بإحدى يديها . . . وقال أبوها بصوت يذوب حناناً :

— ألم أقل لك يا حبيبتى حاذرى من الشرود وأنت تعبرين الطريق ؟ الحمد لله على سلامتك . . .

وقالت بصوت ضعيف واهن ، وهى ترمق أخويها الحبيبين بعينيها الكابيتين ، وكأنها آتية من رحلة بعيدة :

— ماذا حدث ؟ أين أنا ؟

وأجابها الطبيب :

ـ أتشعرين بألم فى جسمك ؟

وصاح والدها بحنان :

ـ سليمة بإذن الله .

وأجاب الطبيب .

ـ ليس بها خدوش .

ولم ترد . . . شرد ذهنها بعيداً عن الحجرة ومن فيها . . .

لا بد أن الطبيب فحص جسمها قطعة قطعة ... الأطباء لا يصدرون أحكامهم القاطعة على عواهنها . . . لا بد أنه لم يجد فى جسمها أثراً لخدش . . . سليمة حقاً ... لا ترى العيون ـ حتى عيون الأطباء التى تفحص كل شىء ـ شيئاً فيها غير سليم . . .

ورفعت عينيها وأجالت نظرة كسيرة ... نظرة مجروحة... فى وجه أبيها . ثم فى وجه الطبيب . . . ولم يفتها فى هذه المرة أن تغتصب ابتسامة باهتة على شفتيها الباهتتين . . .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل .	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	